قسم اللغة العربية وآدابها







قراءة فى كتاب قديم (١) أدب

(عرب ١٠٨) – المستوى الأول

د. إبراهيم محمود عوض

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب – جامعة عين شمس

القاهرة - ٢٠٢٣

كتاب "التيجان فى ملوك حمير"

لوهب بن منبه

دراسة تحليلية

د. إبراهيم عوض

آداب عين شمس

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

الفهرست

تقديم

الهدف من تقرير هذه المادة هو أن يدرس الطالب أحد الكتب العربية التراثية من ميدان الأدب، ويتدرب من خلاله على قراءة النصوص الأدبية القديمة وفهمها فى إطار العصر الذى تنتمى إليه ودراسة أبرز القضايا المطروحة فيها. وقد اخترت كتاب "التيجان" لوهب بن منبه، وهو من الكتب المبكرة فى تاريخ الثقافة الإسلامية، ويثير عددا من قضايا الأدب والفكر والتاريخ مما يهم المرتبطين بالثقافة العربية والإسلامية: فهو يتكلم عن عدد غير قليل من الأنبياء القدماء، ويعطينا قائمة مفصلة بأسماء كثير من ملوك حمير وأعمالهم. وهو يستفز عقل الباحث إلى تناول قضية النحل والانتحال المشهورة فى تاريخ الأدب العربى، إذ ورد فيه كثير من الأشعار المنسوبة إلى آدم وقوم عاد مثلا. كما يستفز عقله إلى دراسة ما قاله وهب بن مُنَبِّه اليمنى فى ملوك بلاده وإلى أى مدى يمكن الاعتماد عليه فى مواجهة ما يقوله علماء الآثار عنهم من ناحية أسمائهم وتواريخ جلوسهم على عروشهم... إلخ. ثم هناك أسلوب الكتاب، وهو أسلوب بسيط مباشر أقرب ما يكون من لغة الحديث اليومى لكن مع الإعراب. وأرجو من الله أن أكون قد وفقت فى هذا السبيل. وقد كنا نسمع كثيرا عن هذا الكتاب ومؤلفه وهب بن منبه، وقرأنا ما كتبه عنه النقاد ومؤرخو الأدب، لكن هذه أول مرة أتعامل فيها مع الكتاب وصاحبه وجها لوجه. وقد أدليت بما رأيته دون أن أدع ما كتبه الذين سبقونى إليه يَغُلّ فكرى أو يدى بل قلت ما عندى مما أنا مقتنع به أو أرى أنه أقرب رشدا مع معرفتى أن اجتهادى شيء، وبلوغى الحقيقة شيء آخر. والله الموفق إلى الصواب والفلاح.

وهب بن مُنَبّه وكتابه: "التيجان فى ملوك حِمْيَر"

وأول ما نتناوله فى دراستنا لهذا الكتاب هو التعريف بصاحبه، وهو وَهْب بن مُنَبِّه الصنعانى الذَّمَارى (٣٤هـ- ١١٤هـ). وقد وُلِد فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه فى مدينة ذَمَار فى اليمن من أم حِمْيَرِيّة وأبٍ فارسى من مدينة هراة بخراسان، كما كان جده الأكبر يلقب بـ"الأُسْوار". ويعد وهب من "الأبناء"، أى أبناء أفراد الجيش الفارسى الذى أرسله كسرى أنوشروان نجدةً للأمير الحِمْيَرِى سيف بن ذى يَزَن لإخراج الأحباش من اليمن. وهو تابعىٌ ثقة أدرك عدداً من الصحابة وروى عنهم. وكان واسع الثقافة كثير الاطلاع على الكتب القديمة، وبخاصة كتب اليهود والنصارى. وركز وهب اهتمامه على أخبار العرب فى الجاهلية، وروى أخبار غير العرب التى استقاها من بعض كتب الأديان السابقة، ويغلب على أخباره طابع القصص الشعبى. ويقول بعض العلماء إنه كان يجيد عدداً من اللغات مثل اليونانية والسريانية والحميرية، كما كان يستطيع قراءة بعض الكتابات القديمة. ويُعْتَقَد أنه كان معتنقًا لليهودية وأسلم. وقد عاش فى اليمن، وتولى القضاء زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز، ومات بصنعاء عن ٨٠ عامًا. وأخذ عن ابن عباس والنعمان بن بشير وجابر وغيرهم. وأما روايته للأحاديث فقليلة. ومن مؤلفاته "ذِكْر الملوك المتوّجة من حِمْيَر (وهو كتاب "التيجان"، الذى نحن بصدده)، وقصص الأنبياء، وقصص الأخيار".

ويبدأ وهب كتابه بالحديث عن قصة الخلق، ثم يتناول سيرة آدم وذريته بدءا من هابيل وقابيل وشيث أبنائه، ويظل فى ذلك المضمار مارًّا بنوح إلى أن يصل إلى إبراهيم وإسماعيل، فحينئذ يترك سائر البشر ويركز كلامه على العرب فتاريخ اليمن وحمير وملوكها. فهو، كما نرى، يشبه على نحو ما كتاب "العهد القديم"، الذى يبدأ بقصة الخلق

ثم يستمر فى الحديث عن أبى البشر وذريته ويستمر فى السير فى ذلك الدرب مرورا بنوح حتى يصل إلى إبراهيم فإسحاق فيعقوب، الذى يبتدئ به تاريخ بنى إسرائيل، فحينئذ يترك تاريخ سائر البشر ويلتصق بتاريخ الإسرائيليين وملوكهم وأنبيائهم حتى زكريا عليه السلام. ولهذه الطريقة فى التأريخ قال عنه د. عبد العزيز الدورى خلال كلامه عنه فى كتابه: "نشأة علم التاريخ عند العرب" إنه "قدم أول نموذج للتاريخ العالمى متمثلا فى تاريخ الرسالات". وأستطيع بدورى أن أقول: إذا كان الأمر هكذا فالعهد القديم يشاركه هذا الوصف، وكل ما هنالك من فرق بينهما أن ابن منبه بعد أن انتهى من تاريخ الأنبياء انتقل إلى تاريخ أمته وبلده اليمن بينما انتقل العهد القديم حينذاك إلى تاريخ بنى إسرائيل حتى زكريا. كما أن كتاب "التيجان" قد وضع دفعة واحدة بينما العهد القديم هو من صنع أيدٍ كثيرة لا يدٍ واحدة.

وكَتَبَ وهب فى عدد من الموضوعات، لكن لم يصلنا أى من كتبه كاملاً ، واقتصر الأمر على المقتبسات التى نقلها عنه كل من ابن إسحاق والطبرى وابن قتيبة وغيرهم. ومن الكتب المنسوبة إليه كتاب "الملوك المتوّجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم"، وقد وصلت إلينا أجزاء منه فى كتاب "التيجان فى ملوك حمير" لابن هشام، كما ينسب إليه كتاب "المبتدأ" الذى يشير عنوانه إلى ابتداء الخليقة، وهو أول محاولة عند العرب لكتابة تاريخ البشر والأديان، وقد اعتمد عليه ابن قتيبة فى كتاب "المعارف"، والطبرى فى "تاريخ الرسل والملوك"، والمقدسى فى "البدء والتاريخ"، وأحمد بن محمد الثعلبى فى "عرائس المجالس فى قصص الأنبياء". وينسب إلى وهب أيضا كتاب "المغازى"، الذى لم يبق منه إلا مجموعة أوراق مخطوطة، كما ذكِر أنه ألف كتاباً فى القدر لأنه كان قدريا، أى من المعتزلة، ثم ندم على تصنيفه. ويُعْتَقَد أن وهبا زهد

فى آخر حياته لكثرة ما قرأ من الكتب الدينية السابقة وكتب سير الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله قبل محمد عليه الصلاة والسلام.

وقد رُوِىَ عن وهب كثير من الحكم والمواعظ فى كتاب أبى نعيم الأصفهانى: "حلية الأولياء". ومن ذلك: "لاَ يَشُكَّنَّ ابْنُ آدَمَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يوقِعُ لأَرْزَاقٍ مُتَفَاضِلَةً وَمُخْتَلِفَةً، فَإِنْ تَقَلَّلَ ابْنُ آدَمَ شَيْئًا مِنْ رِزْقِهِ فَلْيَزِدْهُ رَغْبَةً إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلاَ يَقُولَنَّ لَوْ أَطْلَعَ اللهُ هَذَا وَشَعَرَ بِهِ غَيْرُهُ، فَكَيْفَ لاَ يُطْلِعُ اللهُ الشَّيْءَ الَّذِى هُوَ خَلَقَهُ وَقَدَّرَهُ، أَوَلاَ يَعْتَبِرُ ابْنُ آدَمَ فِى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَفَاضَلُ فِيهِ النَّاسُ، فَإِنَّ اللهَ فَضَّلَ بَيْنَهُمْ فِى الأَجْسَامِ وَالأَلْوَانِ وَالْعُقُولِ وَالأَحْلاَمِ، فَلاَ يَكْبُرُ عَلَى ابْنِ آدَمَ أَنْ يُفَضِّلَ اللهُ عَلَيْهِ فِى الرِّزْقِ وَالْمَعِيشَةِ، وَلاَ يَكْبُرُ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِى عِلْمِهِ وَعَقْلِهِ، أَوَلاَ يَعْلَمُ ابْنُ آدَمَ أَنَّ الَّذِى رَزَقَهُ فِى ثَلاَثَةِ أَوَانٍ مِنْ عُمْرِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِى وَاحِدٍ مِنْهُنَّ كَسْبٌ وَلاَ حِيلَةٌ أَنَّهُ سَوْفَ يَرْزُقُهُ فِى الزَّمَنِ الرَّابِعِ، أَوَّلُ زَمَنٍ مِنْ أَزْمَانِهِ حِينَ كَانَ فِى رَحِمِ أُمِّهِ يُخْلَقُ فِيهِ وَيُرْزَقُ مِنْ غَيْرِ مَالٍ كَسَبَهُ فِى قَرَارٍ مَكِينٍ لاَ يُؤْذِيهِ فِيهِ حَرٌّ وَلاَ قُرٌّ، وَلاَ شَيْءٌ يهمه، ثُمَّ أَرَادَ اللهُ أَنْ يُحَوِّلَهُ مِنْ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ إِلَى غَيْرِهَا، وَيُحْدِثَ لَهُ فِى الزَّمَنِ الثَّانِى رِزْقًا مِنْ أُمِّهِ يَكْفِيهِ وَيُغْنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ وَلاَ قُوَّةٍ، ثُمَّ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَعْصِمَهُ مِنْ ذَلِكَ اللَّبَنِ وَيُحَوِّلَهُ فِى الزَّمَنِ الثَّالِثِ فِى رِزْقٍ يُحْدِثُهُ لَهُ مِنْ كَسْبِ أَبَوَيْهِ، يَجْعَلُ لَهُ الرَّحْمَةَ فِى قُلُوبِهِمَا حَتَّى يُؤْثِرَاهُ عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِكَسْبِهِمَا، وَيَسْتَعِينَا رُوحَهُ بِمَا يُعِينُهُمَا، لاَ يُعِينُهُمَا فِى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِكَسْبٍ وَلاَ حِيلَةٍ يَحْتَالُهَا، حَتَّى يَعْقِلَ وَيُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّ لَهُ حِيلَةً وَكَسْبًا، فَإِنَّهُ لَنْ يُغْنِيَهُ فِى الزَّمَنِ الرَّابِعِ إِلاَّ مَنْ أَغْنَاهُ وَرَزَقَهُ فِى الأَزْمَانِ الثَّلاَثِ الَّتِى قَبْلَهَا، فَلاَ مَقَالَ لَهُ وَلاَ مَعْذِرَةَ إِلاَّ بِرَحْمَةِ اللهِ، هُوَ الَّذِى خَلَقَهُ، فَإِنَّ ابْنَ آدَمَ كَثِيرُ الشَّكِّ، يَقْصُرُ بِهِ حِلْمُهُ وَعَقْلُهُ عَنْ عِلْمِ اللهِ، وَلاَ يَتَفَكَّرُ فِى أَمْرِهِ، وَلَوْ تَفَكَّرَ حَتَّى يَفْهَمَ، وَيَفْهَمَ حَتَّى يَعْلَمَ، عَلِمَ أَنَّ عَلاَمَةَ اللهِ الَّتِى بِهَا يَعْرِفُ خَلْقَهُ الَّذِى خَلَقَ وَرَزَقَهُ لِمَا خَلَقَ".

"إِنّي وَجَدْتُ فِي بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يُكَابِدْ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُؤْمِنٍ عَاقِلٍ، وَأَنَّهُ يُكَابِدُ مِائَةَ أَلْفِ جَاهِلٍ فَيَسْخَرُ بِهِمْ حَتَّى يَرْكَبَ رِقَابَهُمْ فَيَنْقَادُونَ لَهُ حَيْثُ شَاءَ، وَيُكَابِدُ الْمُؤْمِنَ الْعَاقِلَ فَيَصْعُبُ عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَنَالَ مِنْهُ شَيْئًا. وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: لَإِزَالَةُ الْجَبَلِ صَخْرَةً صَخْرَةً، وَحَجَرًا حَجَرًا أَيْسَرُ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ مُكَابَدَةِ الْمُؤْمِنِ الْعَاقِلِ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا عَاقِلًا ذَا بَصِيرَةٍ فَلَهُوَ أَثْقَلُ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنَ الْجِبَالِ، وَأَصْعَبُ مِنَ الْحَدِيدِ، وَأَنَّهُ لَيُزَايِلُهُ بِكُلِّ حِيلَةٍ، فَإِذَا لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَسْتَزِلَّهُ قَالَ: يَا وَيْلَهُ! وَلِهَذَا لَا حَاجَةَ لِي بِهَذَا، وَلَا طَاقَةَ لِي بِهَذَا، فَيَرْفُضُهُ وَيَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَاهِلِ فَيَسْتَأْسِرُهُ وَيَسْتَمْكِنُ مِنْ قِيَادِهِ، حَتَّى يُسْلِمَهُ إِلَى الْفَضَائِحِ الَّتِي يَتَعَجَّلُ بِهَا فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا كَالْجَلْدِ وَالْحَلْقِ وَتَسْخِيمِ الْوُجُوهِ وَالْقَطْعِ وَالرَّجْمِ وَالصَّلْبِ، وَإِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَسْتَوِيَانِ فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ فَيَكُونُ بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ أَوْ أَبْعَدَ إِذَا كَانَ أَحَدُهُمَا أَعْقَلَ مِنَ الْآخَرِ".

"قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ فَوَجَدْتُ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَنْصَفْتَنِي: تَذْكُرُنِي وَتَنْسَانِي، وَتَدْعُونِي وَتَفِرُّ مِنِّي، خَيْرِي إِلَيْكَ نَازِلٌ، وَشَرُّكَ إِلَيَّ صَاعِدٌ، وَلَا يَزَالُ مَلَكٌ كَرِيمٌ قَدْ نَزَلَ إِلَيْكَ مِنْ أَجْلِكَ، وَلَا يَزَالُ مَلَكٌ كَرِيمٌ قَدْ صَعِدَ إِلَيَّ مِنْكَ بِعَمَلٍ قَبِيحٍ. يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّ أَحَبَّ مَا تَكُونُ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَ مَا تَكُونُ مِنِّي إِذَا كُنْتَ رَاضِيًا بِمَا قَسَمْتُ لَكَ، وَأَبْغَضَ مَا تَكُونُ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَ مَا تَكُونُ مِنِّي إِذَا كُنْتَ سَاخِطًا لَاهِيًا عَمَّا قَسَمْتُ لَكَ. يَا ابْنَ آدَمَ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ، وَلَا تُعَلِّمْنِي بِمَا يُصْلِحُكَ. إِنِّي عَالِمٌ بِخَلْقِي، وَأَنَا أُكْرِمُ مَنْ أَكْرَمَنِي، وَأُهِينُ مَنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرِي، وَلَسْتُ بِنَاظِرٍ فِي حَقِّ عَبْدِي حَتَّى يَنْظُرَ عَبْدِي فِي حَقِّي".

"إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ نَظَرَ إِلَيْهِمْ حِينَ مَشَوْا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَقَالَ: أَنَا اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، الَّذِي خَلَقْتُكَ بِقُوَّتِي، وَأَتْقَنْتُكَ بِحِكْمَتِي، حَقٌّ قَضَائِي، وَنَافِذٌ أَمْرِي، أَنَا أُعِيدُكَ كَمَا خَلَقْتُكَ، وَأُفْنِيكَ بِحِكْمَتِي حَتَّى أَبْقَى وَحْدِي، فَإِنَّ الْمُلْكَ وَالْخُلُودَ

لاَ يَحِقُّ إِلاَّ لِي، أَدْعُو خَلْقِي وَأَجْمَعُهُمْ لِقَضَائِي يَوْمَ يَخْسَرُ أَعْدَائِي، وَتَجِلُ الْقُلُوبُ مِنْ خَوْفِي، وَتَجِفُ الأَقْلاَمُ مِنْ هَيْبَتِي، وَتَبْرَأُ الآلِهَةُ مِمَّنْ عَبَدَهَا دُونِي".

"قَالَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا يَعْتِبُ بِهِ أَحْبَارَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: تَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَتَتَعَلَّمُونَ لِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَتَتَنَازَعُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، تَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ، وَتُخْفُونَ أَنْفُسَ الذِّئَابِ، وَتُنْقُونَ الْقَذَى مِنْ شَرَابِكُمْ، وَتَبْتَلِعُونَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ مِنَ الْحَرَامِ، وَتُثَقِّلُونَ الدِّينَ عَلَى النَّاسِ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، ثُمَّ لاَ تُعِينُونَهُمْ بِرَفْعِ الْخَنَاصِرِ، وَتُطِيلُونَ الصَّلاَةَ، وَتُبَيِّضُونَ الثِّيَابَ، تَقْتَنِصُونَ بِذَلِكَ مَالَ الْيَتِيمِ وَالأَرْمَلَةِ. فَبِعِزَّتِي حَلَفْتُ لأَضْرِبَنَّكُمْ بِفِتْنَةٍ يَضِلُّ فِيهَا رَأْيُ ذِي الرَّأْيِ، وَحِكْمَةُ الْحَكِيمِ".

"مَا عُبِدَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ، وَمَا يَتِمُّ عَقْلُ امْرِئٍ حَتَّى تَكُونَ فِيهِ عَشْرُ خِصَالٍ: أَنْ يَكُونَ الْكِبْرُ مِنْهُ مَأْمُونًا، وَالرُّشْدُ فِيهِ مَأْمُورًا، يَرْضَى مِنَ الدُّنْيَا بِالْقُوتِ، وَمَا كَانَ مِنْ فَضْلٍ فَمَبْذُولٌ، وَالتَّوَاضُعُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرَفِ، وَالذُّلُّ فِيهَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعِزِّ، لاَ يَسْأَمُ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ دَهْرَهُ، وَلاَ يَتَبَرَّمُ مِنْ طَالِبِي الْخَيْرِ، يَسْتَكْثِرُ قَلِيلَ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَسْتَقِلُّ كَثِيرَ الْمَعْرُوفِ مِنْ نَفْسِهِ، وَالْعَاشِرَةُ هِيَ مِلاَكُ أَمْرِهِ، بِهَا يَنَالُ مَجْدَهُ، وَبِهَا يَعْلُو ذِكْرُهُ، وَبِهَا عُلاَهُ فِي الدَّرَجَاتِ فِي الدَّارَيْنِ كِلَيْهِمَا. قِيلَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: أَنْ يَرَى أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ بَيْنَ خَيْرٍ مِنْهُ وَأَفْضَلَ، وَآخَرَ شَرٍّ مِنْهُ وَأَرْذَلَ، فَإِذَا رَأَى الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَفْضَلُ كَسَرَهُ ذَلِكَ وَتَمَنَّى أَنْ يَلْحَقَهُ، وَإِذَا رَأَى الَّذِي هُوَ شَرٌّ مِنْهُ وَأَرْذَلُ قَالَ: لَعَلَّ هَذَا يَنْجُو وَأَهْلِكُ، وَلَعَلَّ لِهَذَا بَاطِنًا لَمْ يَظْهَرْ لِي، وَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ، وَيَرَى ظَاهِرَهُ فَيَقُولُ: لَعَلَّ ذَلِكَ شَرٌّ لِي. فَهُنَاكَ يَكْمُلُ عَقْلُهُ، وَسَادَ أَهْلَ زَمَانِهِ، وَكَانَ مِنَ السَّابِقِ إِلَى رَحْمَةِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَجَنَّتِهِ إِنْ شَاءَ اللّهُ تَعَالَى".

هذا عن وهب، أما كتاب "التيجان عن ملوك حِمْيَر" فكما سبق القول: هو كتاب فى سِيَر حكام مملكة حِمْيَر المُسَمّيْنَ بـ"التّبَابِعَة" (جمع "تُبّع")، وأما راويه فهو عبد الملك بن هشام الحميرى البصرى المتوفَّى سنة ٢١٨هـ، ومؤلفه وهب بن مُنَبِّه بن كامل الأبناوى (المنتسب إلى أبناء فارس) اليمانى الصنعانى، المحدِّث (٣٤- ١١٤هـ). وكتاب وهب هو كتاب تاريخ فى الأساس أو يفترض فيه أنه كذلك. وهو ينتهى بالكلام عن حمير، التى يورد قائمة شديدة الطول والتفصيل بأسماء ملوكها وإنجازاتهم بغض النظر عن مدى الصواب أو الخطإ فى ذلك. والنسخة التى بين أيدينا من الكتاب هى الطبعة الثانية التى صدرت عن مركز الدراسات والأبحاث اليمنية بصنعاء سنة ١٩٧٩م وكان وراء خروجها إلى النور د. عبد العزيز المقالح. وهى تقع فى نحو خمسمائة صفحة، لكنها ليست مقصورة كلها على كتاب "التيجان" وحده بل يشغل الكتاب منها مع المقدمة وما إلى ذلك ٣٢١ صفحة. والباقى بعنوان "أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها".

ويضم الكتاب عشرات من أسماء حكام حمير: حمير ووائل بن حمير والسكسك بن وائل ويعفر بن السكسك وعابر ذو رياش والمعافر بن يعفر وشداد بن عاد ولقمان بن عاد والهمال بن عاد والحارث بن الهمال والصعب ذو القرنين وأبرهة والعبد بن أبرهة وعمرو بن أبرهة وشرحبيل والهدهاد بن شرحبيل وبلقيس بنت الهدهاد ومالك بن عمرو بن يعفر وعمرو بن الحارث بن مضاض وشمر يرعش بن ناشر النعم ونبع صيفى بن شمر يرعش بن عمرو ناشر النعم... وهكذا حتى أسعد بن كرب الأوسط آخر ملك فى النسخة الموجودة من الكتاب، وهى نسخة غير كاملة.

ويشتمل الكتاب على مسائل غاية فى الأهمية منها الأدبى، ومنها الأسطورى، ومنها الدينى، ومنها التاريخى... وكلها يهم دارسى الإسلام وأدب العرب.

مصادر علم وهب بن منبه

ومن هذه القضايا تلك التى تلقانا أول ما نفتحه، إذ نُلْفِى وهبًا يقول: "قرأت ثلاثة وتسعين كتابًا مما أنزل الله على الأنبياء فوجدت فيها أن الكتب التى أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابًا أنزل صحيفتين على آدم بكتابين: صحيفة فى الجنة، وصحيفة على جبل لبنان، وعلى شيت بن آدم خمسين صحيفة، وعلى أخنوح، وهو إدريس، ثلاثين صحيفة، وعلى نوح صحيفتين: صحيفة قبل الطوفان، وأخرى بعد الطوفان، وعلى هود أربعًا، وعلى صالح صحيفتين، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة، وعلى موسى خمسين صحيفة، وهى الألواح (قال الله: "إنَّ هذا لفى الصُّحُفِ الأولى * صُحُفِ إبراهيمَ وَمُوسَى")، وعلى داود الزبور، وعلى عيسى الإنجيل، وعلى محمد الفرقان".

لكنه للأسف لم يذكر لنا أسماء الكتب الثلاثة والتسعين التى قرأها ووجد فيها أن الكتب السماوية التى أنزلها الله على أنبيائه مائة وثلاثة وستون كتابا، ولا ذكرها لنا أحد من ذريته أو من تلاميذه ورواته، ولا دلنا أحد عليها أو على مصيرها بعدما مات ولا كيف حصل عليها أصلا ولا بأية لغة كان يقرؤها. ويقول د. حسين نصار، فى الصفحات التى خصصها لوهب بن منبه من كتابه: "نشأة التدوين التاريخى عند العرب"، إن وهبا كان يعتمد فيما تركه لنا من تآليف على أخبار أهل الكتاب من يهود ونصارى، وإن ما يقال عن قراءته لسبعين أو ثلاثة وسبعين أو اثنين وتسعين من كتبهم المقدسة هو أمر محل شك، وإنه قد يكون استقى أغلب هذه الأخبار من أهل الكتاب الذين اتصل بهم فى اليمن مسقط رأسه، وإن ياقوتا الحموى قد ذكر أنه يكثر النقل من الكتب القديمة المعروفة بــ"الإسرائيليات".

ويشبه هذا ما جاء عنه فى هذا الخبر الذى أنقله من ترجمته المطولة فى "حلية الأولياء" لأبى نعيم الأصفهانى: "اجْتَمَعَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ وَعَطَاءٌ الْخُرَاسَانِي، فَقَالَ لَهُ عَطَاءٌ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا هَذَا الْكَلامُ الَّذِي بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ فَشَا عَنْكَ فِي الْقَدَرِ؟ فَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: مَا تَكَلَّمْتُ فِي الْقَدَرِ بِشَيْءٍ، وَلا أَعْرِفُ هَذَا. ثُمَّ حَدَّثَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ فَقَالَ: قَرَأْتُ نَيِّفًا وَتِسْعِينَ كِتَابًا مِنْ كُتُبِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا سَبْعُونَ أَوْ نَيِّفٌ وَسَبْعُونَ ظَاهِرَةٌ فِي الْكِتَابَيْنِ، وَمِنْهَا عِشْرُونَ لا يَعْلَمُهَا إِلا قَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ، فَوَجَدْتُ فِيهَا كُلِّهَا أَنَّ مَنْ وَكَّلَ إِلَى نَفْسِهِ شَيْئًا مِنَ الْمَشِيئَةِ فَقَدْ كَفَرَ". ولكن إذا صحت الرواية هل كُتُبُ الله سبحانه هى كتبٌ فى علم الكلام كما يدل عليه هذا الاقتباس؟ ثم ما أسماء تلك الكتب؟ وأين نقع فيها على هذا القول؟

وعلى كلٍّ فمن أين لوهب بن منبه أن الله أنزل على آدم كتابين، وعلى ابنه شيث خمسين كتابا، وعلى أخنوخ ثلاثين... وهكذا؟ نعرف أن فى "صحيح ابن حبان" حديثا من رواية أبى ذر وردت فيه أشياء مشابهة لما عند وهب: "قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، كمِ الأنبياءُ؟ قال: مئةُ ألفٍ وعشرونَ ألفًا. قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، كمِ الرُّسلُ مِن ذلك؟ قال: ثلاثُمئةٍ وثلاثةَ عشَرَ جمًّا غفيرًا. قال: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، مَن كان أوَّلَهم؟ قال: آدَمُ. قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، أنبي مرسَلٌ؟ قال: نَعَمْ خلَقه اللهُ بيدِه ونفَخ فيه مِن رُوحِه وكلَّمه قبْلاً. ثمَّ قال: يا أبا ذرٍّ، أربعةٌ سُرْيانيُّون: آدمُ وشِيثُ وأخنوخُ، وهو إدريسُ، وهو أوَّلُ مَن خطَّ بالقلمِ، ونوحٌ. وأربعةٌ مِن العربِ: هودٌ وشعيبٌ وصالحٌ ونبيُّك محمَّدٌ ﷺ. قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، كم كتابًا أنزَله اللهُ؟ قال: مئةُ كتابٍ وأربعةُ كُتُبٍ: أُنزِل على شِيثَ خمسونَ صحيفةً، وأُنزِل على أخنوخَ ثلاثونَ صحيفةً، وأُنزِل على إبراهيمَ عَشْرُ صحائفَ، وأُنزِل على موسى قبْلَ التَّوراةِ عَشْرُ صحائفَ، وأُنزِل التَّوراةُ والإنجيلُ والزَّبورُ والقرآنُ".

ولكن يلاحظ أن الحديث يذكر بين الأنبياء أربعةً سُرْيانيّينَ هم آدمُ وشِيثُ وأخنوخُ، وهو إدريس، ونوح، فكيف يصنفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنهم سريان، وهم فى فجر البشرية، ولم يكن ثم سريان ولا عرب ولا ولا؟ ثم كيف صمت رسول الله فلم يعرِّج على أى من أنبياء بنى إسرائيل ما عدا موسى، الذى ذُكِرَ عَرَضًا، رغم بروز ذكرهم فى القرآن، فضلا عن أن اليهود كانوا أعداءه الألداء، وأولئك أنبياؤهم؟ والملاحظ أن هذا الحديث حديث واحد يتيم، وهو من رواية أبى ذر وحده. ومن اللافت للنظر أيضا أن الرسول قد ذكر إدريس باسم "أخنوخ"، ثم وضحه قائلا إنه هو إدريس، مع أن الله سبحانه وتعالى لا يذكره فى القرآن باسم "أخنوخ" أبدا. فلماذا يخرج النبى عن سَمْت القرآن ويستخدم الاسم المذكور فى العهد القديم، وهو اسم لا يعرفه بطبيعة الحال المسلمون بما فيهم أبو ذر الغفارى، ثم يضطر عليه السلام إلى توضيحه بأنه إدريس؟ ألا إن ذلك لغريب! كذلك فإن عدد الكتب السماوية الذى حدده الرسول عليه السلام هو ١٠٤ كتب فى حين أنه عند وهب ١٦٣ كتابا.

وبالمناسبة فالملاحظ عند وهب حرصه فى بعض المواضع على إيراد نطق الأسماء التى يذكرها فى كتابه ومعانيها فى أكثر من لغة كما هو الحال مثلا مع اسم أنوش بن شيث بن قابيل بن آدم، واسم قينان بن أنوش، واسم عيسى: "واسمه باللسان العبرانى "إنوش" بكسر الهمزة الألف والشين، وتفسيره باللسان العربى "إنسان"، واسمه باللسان السريانى "أنوش" بفتح الألف والشين، وتفسيره باللسان العربى "صادق"، فعمل فى الأرض بطاعة الله حتى بلغ عمره تسعمائة وخمسين سنة، فلما بلغ العمر المسمّى فى الدعوة أوصى إلى ابنه قينان، ثم قبضه الله عز وجل. "قينان": عبرانى تفسيره باللسان العربى "مشترى"، وكذلك اسمه بالسريانى، فعمل بأمر الله وقام بحق الله. واسمه فى الإنجيل "واينان"،

وتفسيره بالعربى "عيسى". فلما بلغ من العمر غاية دعوة آدم وعاش تسعمائة سنة وعشر سنين أوصى إلى مهليل ابنه، ومات قينان ووَلِىَ الأمرَ ابنُه. "مهليل": عبرانى، وتفسيره باللسان العربى "ممدوح"، واسمه بالسريانى فى الإنجيل "مالالى"، وتفسيره بالعربى "مسيح الله"، فصار بأمر الله قائمًا. فلما بلغ الغاية من العمر من دعوة آدم وعاش بضعمائة سنة وعشرين سنة أوصى إلى ابنه "يارد". اسمه فى التوراة عبرانى، وتفسيره بالعربى "ضابط"، واسمه فى الإنجيل "سريانى"، وتفسيره بالعربى "هبط"، أى هبط فى الأيام. ثم قبض الله مهليل ووَلِىَ الأمرَ فى بنى آدم ياردُ، فعمل بأمر الله. فلما بلغ إلى غاية الدعوة وعاش تسعمائة سنة واثنتين وستين سنة أوصى إلى ابنه أخنوخ، ثم قبضه الله إليه. و"أخنوخ": اسمه فى التوراة عبرانى، وتفسيره بالعربى "إدريس"، وهو إدريس عليه السلام، وأخنوخ اسمه سريانى".

وهذا النص موجود فى الصفحات الأولى من كتاب "التيجان فى أخبار حمير"، ومنه ومن غيره من النصوص المشابهة قد يمكن الحكم بأن وهبا كان على علم بتلك اللغات التى يذكرها على نحو أو على آخر دون أن نستطيع تحديد المدى الذى بلغته معرفته بها، وإن كان د. حسين نصار يطمئن إلى حد كبير إلى أنه كان على معرفة بالعبرية والسريانية، وربما الآرامية والحميرية كذلك. لكنى أوثر التوقف فى هذا الموضوع عند الحد الذى ذكرته.

ومما قاله وهب بن منبه أيضا "لما أراد الله خروج آدم من الجنة للذى سبق فى علمه قال: يا آدم، اخرج أنت وزوجك من جوارى. قال وهب: قال بعض أهل العلم إن إبليس ركب الحية، وكانت ذات قوائم أربع، حين أتى آدم ليأكل من الشجرة. قال لهم الله: اخرجوا من الجنة. اهبطوا إلى الأرض بعضكم لبعض عدو. قال: وسُلِبَت الحيةُ قوائمَها،

وأخذ جبريل يجتاحه فرماه بجبل جى بخراسان. وزعم بعض أهل العلم أنه يخرج منه الدجال فى آخر الزمان. فنزل آدم على جبل لبنان، وقال قوم: على الجُودِى، ونزلت حواء على جبل الطور، وأن آدم لما غوى وأمره الله بالخروج من الجنة أخذ جوهرة من الجنة يمسح دموعه بتلك الجوهرة حتى اسودت من دموع الخطيئة... ثم أنزل الله عليه صحيفة نزل بها جبريل، كتاب من عند الله، وأمره أن يسير إلى البلد الحرام ويبنى البيت العتيق وكيف يكون نكاح ولده وولد ولده بما يصلحهم من معاشهم... وأن آدم قال: يا حبيبى يا جبريل، لا أعرف البلد الحرام. فأوحى الله إلى جبريل أنى دليل الأَدِلاَّء. دُلَّه على البلد الحرام. فسار جبريل بآدم حتى أوقفه على الحَرَم وعلى المسجد، وأراه مبتدأ البيت، وأن حواء وجدت رائحة الجنة من قِبَل المسجد الحرام عن آدم، فتوجهت قِبَل آدم. فلما رأى آدم شخصها من بعيد سعى إليها، فالتقيا بعرفات فتعارفا، فمن ثم سميت: عرفات. ثم بنى آدم البيت وتُعِينه حواء حتى رفع الحطيم، فأمره جبريل أن يجعل فيه الجوهرة التى خرج بها من الجنة ففعل، وقال: هذا مَنْسَكٌ لك ولولدك من بعدك. فلما تم بناء البيت أمره جبريل بقطع خشبة من المسجع بين الطائف ومكة، وقال بعض الناس: بل من المسجد الحرام، فقطع خشبة فرفع سَمْك البيت وأمره بالحج إليه والصلاة وأعلمه أنه قِبْلَةٌ له ولبنيه. فأوَّلُ أثرٍ على وجه الأرض مكة".

وهذا كلام لا يعقله عاقل، إذ كيف يركب إبليس الحية وكأنها فرس أو ناقة مثلا لها قوائم وتطيق حمله؟ ثم متى يحتاج إبليس إلى وسيلة مواصلات؟ إنه يجرى بالحَرَى فى دمنا، أى فى عقولنا وقلوبنا وضمائرنا بداخلنا. إن حكاية الحية إنما هى من قصص العهد القديم مع بعض الفروق الطفيفة. وكيف يمسح آدم دموعه بجوهرة؟ هل الجوهرة قماش يمتص الدمع؟ ولماذا تسودّ الجوهرة، والدموع ليست حبرا أسود، والجوهرة ليست

قماشا كما قلنا؟ وكيف ينزل آدم وحواء فى موضعين على الأرض متباعدين كل ذلك التباعد المذكور فى الرواية ثم يلتقيان وكأن المسافة التى بينهما مسافة أمتار؟ وهل كانت هناك مواصلات أصلا يركبها كل منهما فى سفره هذا الطويل وبحثه عن نصفه الآخر؟ وكيف يبنى آدم البيت، وهو قد نزل من الجنة من فوره ولم يكن قد تعلَّم بِنَاءً ولا هَدْمًا؟ ثم هل كان ثم وجود للطائف ومكة فى الأيام الأولى من عمر الأرض؟ فكيف يا ترى؟ إن هذا يحتاج إلى مرور آلاف الأعوام. بل كيف يكون هناك البيت، والقرآن يقول إن من بنى البيت ودعا الناس إلى الحج هو إبراهيم عليه السلام لا آدم؟ إننا أمام قصة شائقة، نعم لا جدال فى ذلك، لكنها ليست حقيقية... وثَمّ قصص كثيرة مثلها يشتمل عليها كتاب "التيجان".

كتاب "التيجان" وقضية النحل والانتحال

كذلك يثير هذا الكتاب قضية أدبية على جانب كبير من الأهمية تتصل بمسألة نحل الشعر وانتحاله. ذلك أن فى الكتاب شعرا عربيا مَعْزُوًّا لآدم نفسه أبى البشر يرثى به ابنه هابيل حين قتله قابيل، وهذا ما نقرؤه عن ذلك الموضوع فى الكتاب الذى نحن بصدده: "قال وهب: قال ابن عباس: كانت منافستهما على أخت قابيل التى وُلِدَتْ معه فى بطن، وكانت جميلة، فطلب هابيل أن يتزوجها، وقال له قابيل: أنا أتزوجها. فقال له هابيل: لن تحلّ لك. قال له قابيل: أُقَرِّب معك قربانا، فمن أكلت النار قربانه تزوجها. فقرّبا، فأكلت النار قربان هابيل، فبَقِيَ قربان قابيل، فحسد هابيلَ عليها ونقز عليه فقتله... قال وهب: فلما رآه ميتًا حين قتله أقبل عليه يدعو وينادى: يا هابيل! يا هابيل! فلما لم يجبه أقبل عليه يقلّبه ليتحرك، فلما رآه ميتًا لا يتحرك ولا يحير جوابًا ولا ينظر نَدِمَ وأدركه الخوف وعلم أنه الموت، وداخلته وحشة الموت، وعلم أنه عصى الله فطلب الحيلة له فلم يدر ما يفعل فيه، وضاقت عليه الأرض، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فلما مات بحث الغربُ الحىُّ حتى خَدّ فى الأرض أخدودًا ثم جر إليه الغربَ القتيلَ فألقاه فى الأخدود، فقال: هذا غراب علم ما يعمل بأخيه. فما لى لا أوارى سوأة أخى هكذا؟ فلما حفر ليواريه أتت حواء لتطلبهما لما غابا عنها فوجدته قد حفر له قبرا ووجدت هابيل قتيلاً ، فحملته وسارت به إلى آدم وقالت: له: يا آدم، هذا هابيل أكلمه فلا يكلمنى ولا ينظر ولا يتحرك. قال: ما باله؟ قال له قابيل: أنا فعلت به هذا. قال آدم: اذهب عنى، فقد عصيتَ الله. إياك أن تلقانى! فذهب فلم يلق آدم بعدها. وقال آدم لحواء: هذا الموتُ الذى أعلمتك به. تزوّدى منه (أى من ابنك المقتول)، فإنك لن تَرَيْهِ إلى يوم الدين يرجع إلى الأرض التى خُلِقْنا منها. فلما أيقنت بفراقه وأنها لا تراه أَبَدَ الأبدِ

عظمت عليها المصيبة ورفعت يديها إلى رأسها وصاحت. فمن أجل ذلك صارت كل امرأة على الدنيا إذا أصابتها مصيبة تأدت بيدها على رأسها وصاحت كفعل حواء. فلما بكت حواء قال لها آدم: مُذْ خُلِق الموت فى الدنيا لم تجفّ لعاقل فيها عين ولا تجف لأهلها عين: يبكون ويُبْكَى عليهم حتى يتفارقوا ونفارقهم. يا حواء: ذهب الأمل، وحل الأجل: فمن قدّم خيرًا وجده، ومن قدّم شرًا وجده. وأنشأ يقول يرثى هابيل:

تغيرت البلاد ومَنْ عليها ... فوَجْه الأرض مغبرٌ قبيحُ
وجاورَنا عدوٌّ ليس يهدى ... لَعِينٌ لا يموت فأستريحُ
أيا هابيلُ يا ثمرَ الفؤادِ ... أبَعْدَ العين مسكنُك الضريحُ؟
محلٌّ تَخْلَق الأجسامُ فيه ... ويَبْلَى عنده الوجهُ الصبيحُ
فعينى لا تجف عليك سَحًّا ... وقلبى الدهرَ محزونٌ قَرِيحُ

قال وهب: قال جُبَيْر بن مُطْعِم: هذه القصيدة ليست لآدم، وهى منحولة. وقال ابن عباس: تكلم آدم بجميع الألسن التى نطق بها بنوه ومَنْ بعده من عربى وعجمى. وهذه الأسماء لم تُعَلَّمْها الملائكة...".

والذى يهمنا من هذا كله هو الشعر الذى يرثى به آدمُ ابنَه القتيل حسبما تقول القصة. وهو شعر عربى فى وقت لم تكن فيه العربية ولا أية من اللغات التى نعرفها الآن قد ظهرت حتى ذلك الوقت لسبب بسيط، وهو أنه لم يكن ثم عرب بعد ولا أى من الشعوب التى وطئت بعد ذلك الأرض. فنحن البشرَ كنا فى ذلك الوقت لا نزال ننقل خطواتنا الأولى على الأرض، ومحصولنا يومذاك من الكلام ضيق محدود جدا جدا، فإن الإنسان لا يصنع لغة بين عشيةِ خَلْقِه وضُحَاه بل لا مناص من مرور الزمن الطويل. وفوق ذلك فالإنسان، فى تصورى، ليحتاجنّ إلى وقت طويل كى تتبلور لديه هذه المشاعر المعقدة

العميقة تجاه الموت ومن يغتالهم الموت من الأحباب والأقارب والأصدقاء. وعلاوة على ذلك كيف يتسنى للإنسان الأول التوصل إلى نظم الشعر أصلا، فضلا عن أن يكون شعرا بتلك المفردات والتعابير والمعانى والخيالات والتراكيب والصور والوزن والقافية؟ ثم من حفظ لنا يا ترى الشعر عبر تلك الحقب والدهور المتناوحة؟ وأخيرا وليس آخرا هل كان موضوع النحل والانتحال فى الشعر قد أثير فى صدر الإسلام وعُرِف فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الأدب العربى، وخاض فيه الصحابة والتابعون كوهب وجبير من مطعم وابن عباس؟ وبمناسبة ذكر ابن عباس يبدو من النص السابق أنه لا ينكر نظم آدم شعرا بالعربية لأنه كان يعرف اللغات البشرية جمعاء حتى يوم الدين حسبما تقول الحكاية. وهو كلام لا أظن ابن عباس قاله ولا خطر له ببال، وإلا فماذا كان يعمل آدم بكل لغات البشر فى فجر التاريخ؟ وهذا لو افترضنا أن ذاكرته يمكن أن تستوعب اللغات كلها، وهو أمر مستحيل؟

فهذه هى الأسباب التى تحملنى على إنكار صحة هذا الشعر قولا واحدا لا أنه سخيف وركيك كما قال د. حسين نصار فى الفصل الذى عقده لوهب بن منبه من كتابه: "نشأة التدوين التاريخى عند العرب". ذلك أن السخافة والركاكة ليستا كافيتين لنفى هذا الشعر عن آدم لو كان آدم عربيا وبلغ من التطور الثقافى والأدبى والشعورى أن ينظم الشعر ويعبر عما يحس به من مشاعر وأحاسيس، إذ ما أكثر الشعر الركيك السخيف بين الشعر الصحيح الذى لا يناله الشك. وأتصور أنه من الممكن تتبع أصل هذا الدليل، دليل السخافة والركاكة على زيف شعر ما وإنكار صحته، إلى ما قاله ابن سلام الجمحى فى مقدمة كتابه: "طبقات فحول الشعراء" أثناء زرايته على محمد بن إسحاق راوى سيرة النبى عليه السلام، وهو "وَكَانَ مِمّن أفسد الشّعْر وهجّنه وَحمل كل غُثَاء مِنْهُ مُحَمّد بن

إِسْحَاق بن يسَار مولى آل مخرمَة بن الْمطلب بن عبد منَاف، وَكَانَ من عُلَمَاء النّاس بالسير. قَالَ الزهرى: لاَ يزَال فى النّاس علمٌ مَا بقى مولى آل مخرمَة. وَكَانَ أَكثر علمه بالمغازى وَالسّيَر وَغير ذَلِك. فَقبل النّاس عَنهُ الأَشْعَار وَكَانَ يعْتَذر مِنْهَا وَيَقُول: لاَ عِلْم لى بالشعر. أُتِينَا بِهِ فأحمله. وَلم يكن ذَلِك لَهُ عذرا. فَكتب فِى السّير أشعار الرِّجَال الذين لم يَقُولُوا شعرًا قطّ وأشعار النِّسَاء فضلا عَن الرِّجَال، ثمّ جَاوز ذَلِك إِلَى عَاد وَثَمُود فَكتب لَهُم أشعارا كَثِيرَة، وَلَيْسَ بِشعر. إِنَّمَا هُوَ كَلاَم مؤلف مَعْقُود بقواف". ذلك أن الكلام المؤلف المعقود بقواف ويخلو من نفحات الخيال وحرارة الإحساس وإحكام الصياغة موجود حتى عند كبار الشعراء كبشار وابن الرومى والمتنبى وأحمد شوقى والعقاد، ولا يعنى هذا أبدا أنه لم يصدر عنهم بل صدر عنهم فى وقت كلال أذهانهم وهمود قرائحهم، أو كما كان القدماء يعتقدون: فى الوقت الذى غابت عنهم شياطينهم.

وقد قرأت لمحمد حسن شراب فى "كتاب شرح الشواهد الشعرية فى أُمّات الكتب النحوية" عن البيتين الأولين من هذه المقطوعة ما نصه: "هذان البيتان منسوبان إلى أبينا آدم عليه السّلام. وقد يكون قالهما، ولكن ليس بلفظهما، وإنما قال معناهما، أو أن الشاعر ترجم عن حال آدم عليه السّلام عند ما قتل قابيل أخاه هابيل. أما واضع لفظ البيتين فهو من المتقدمين، وقد يكون من أهل القرن الثانى الهجرى، وفى النصف الثانى على وجه التحديد، عند ما بدأت مسائل النحو فى الظهور، وبدأ الصراع بين الآراء. ولأنّ البيتين ذكِرا فى قصة بمجلس ابن دريد، المتوفى سنة ٣٢٥ هـ، وكان أبو بكر ابن دريد يحفظهما، وقد أنشدهما واحد ممن يحضر مجلسه. فشيوع البيتين فى أيام ابن دريد دليل على أنّ واضعهما متقدم".

وتعقيبى على ذلك أن البيتين قد ذكرا فى كتاب "التيجان" لوهب بن منبه، وهو متقدم كثيرا على ابن دريد، وذلك إذا صح أنهما كانا موجودين فى الكتاب المذكور منذ البداية، وإن كان من الصعب القطع فى ذلك برأى حاسم. كما أن غاية ما يمكن قوله عن مشاعر آدم فى ذلك الوقت تجاه مقتل ابنه هو أن الأبيات إنما تعبر عما جاش فى نفسه أوانئذ بوجه عام، أى أنها تعبير عن الحزن الشديد على ولده لا أكثر. وبالمناسبة فقد قال ابن كثير عن هذا الموضوع فى كتابه: "البداية والنهاية" شيئا مشابها لكلام ابن دريد. واستنكف طه حسين فى كتابه: "فى الشعر الجاهلى" بآخر الفصل الخاص بالانتحال والقصص أن يتعرض لتحقيق الشعر المنسوب لآدم مجرد تعرض لأنه، كما قال، لم يكتب كتابه ذاك هازلا ولا لاعبا. يريد أن يقول إن نسبة أى شعر لآدم هو هزل لا جد فيه على الإطلاق، ومن ثم لا يصح منه التعرض للنظر فى تلك المسألة. وأنا معه فى موقفه هذا.

وفى "جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام" لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى عن أول من قال الشعر (العربى بطبيعة الحال): "قال محمد: أخبرنا أبو عبد الله المفضل بن عبد الله المحبرى قال: سألت أبى عن أول من قال الشعر، فأنشدنى هذه الأبيات:

تَغَيَّرَتِ البلادُ، ومَنْ علَيها   فَوَجهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ

تغيَّرَ كلُّ ذى لونٍ وطَعمٍ   وقَلَّ بَشاشَةَ الوَجهُ الصَّبيحُ

وَجَاوَرَنا عَدوٌّ لَيسَ يَفْنَى   لَعِينٌ لا يَمُوتُ فَنَسْتَريحُ

أَهابِلُ! إن قُتِلْتَ ، فإنَّ قلبى   عَلَيكَ اليَوْمَ مُكْتَئِبٌ قَرِيحُ

ثم سمعتُ جماعةً من أهل العلم يُؤثِرون أن قائلها أبونا آدم عليه السلام حين قتل ابنه قابيل هابيل. فالله أعلم أكان ذلك أم لا". ونقرأ عَقِبَ ذلك ما يلى: "وذكِر أن إبليسَ عدوّ الله أجاب آدمَ عليه السلام بهذه الأبيات، فقال:

تَنَحّ عنِ الجِنانِ وساكنيها ففى الفِرْدَوْسِ ضَاقَ بِكَ الفسيحُ

وَكُنْتَ بها وزَوْجكَ فى رَخاءٍ وقلبُكَ من أذَى الدّنيا مَرِيحُ

فَما بَرِحَتْ مُكايَدتى ومَكْرِى إلى أنْ فاتَكَ الثّمَنُ الّربيحُ

ولَولا رَحْمةُ الرّحمنِ أَمْسَى بِكَفِّكَ مِنْ جِنانِ الخُلدِ ريحُ"

وهو ما نجد مثله أو قريبا منه فى "الزهرة" لمحمد بن داود الظاهرى، وفى "أمالى الشجرى" لابن الشجرى، وفى "تاريخ الطبرى"، وفى "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودى، وفى "البداية والنهاية" لابن كثير، وفى "الحماسة البصرية" لأبى الفرج البصرى... وغيرها. أى أن إبليس أيضا، حسب هذا الكلام كان عربيا يتقن لغة الضاد ويقرض الشعر بها. وهذا من أعجب العجب. وأعجب منه أن يتوقف إبليس عن قول الشعر بعد تلك الأبيات، فكأنها "بيضة الديك" التى وردت فى الأمثال.

وقد تناول المعرى فى "رسالة الغفران" هذه المسألة بشىء من التفصيل والتهكم على طريقته فى كتابه ذاك، فقال: "فإذا رأى قلةَ الفوائد لديهم تركهم فى الشّقاء السّرْمد، وعَمَدَ لمحلِّه فى الجنان، فيلقى آدم عليه السّلام فى الطّريق فيقول: يا أبانا، صلّى الله عليك، قد رُوِى لنا عنك شعرٌ منه قولك:

نحن بنو الأرض وسكّانها منها خُلِقْنا، وإليها نعودْ

والسّعْد لا يبقى لأصحابه والنّحْس تَمْحوهُ ليالى السُّعودْ

فيقول: إنَّ هذا القول حقٌّ، وما نطقه إلاّ بعض الحكماء، ولكنِّى لم أسمع به حتى السّاعة. فيقول، وفر الله قِسْمه فى الثّواب: فلعلَّك يا أبانا قُلْتَه ثمّ نسيت، فقد علمت أنَّ النِّسيان متسرّعٌ إليك، وحَسْبُك شهيدًا على ذلك الآيةُ المتلوّةُ فى فرقان محمّدٍ صلّى الله عليه وسلم: "ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ من قَبْلُ فنَسِى ولم نجد له عزمًا". وقد زعم بعض العلماء أنّك إنّما سُمِّيت: "إنسانًا" لنسيانك، واحتجّ على ذلك بقولهم فى التّصغير: أُنَيْسِيَان، وفى الجمع: أَنَاسِى، وقد روى أنَّ الإنسان من "النّسيان" عن ابن عبّاس، وقال الطائى:

لا تَنْسَيَنْ تلك العهودَ، وإنّما سُمِّيتَ: "إنسانًا" لأنّك ناسِ

وقرأ بعضهم: "ثمّ أَفِيضوا من حيثُ أفاض النّاسِ" بكسر السّين، يريد "النّاسى"، فحذف الياء كما حُذِفَتْ فى قوله: "سواءً العاكفُ فيه والبادِ". فأمّا البصريُّون فيعتقدون أنَّ الإنسان من الأُنْس، وأنَّ قولهم فى التّصغير: "أُنَيْسِيان" شاذّ، وقولهم فى الجمع: "أَنَاسِى" أصله أناسِين، فأبدلت الياء من النون. والقول الأوّل أحسن. فيقول آدم صلَّى الله عليه: أبيتم إلاَّ عُقُوقًا وأذيّةً، إنّما كنت أتكلَّم بالعربيّة وأنا فى الجنّة، فلمّا هبطت إلى الأرض نُقِل لسانى إلى السُّرْيانيّة، فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت. فلمّا ردّنى الله سبحانه وتعالى عادت علىّ العربيّة، فأىّ حينٍ نظمتُ هذا الشعر؟ فى العاجلة أم الآجلة؟ والذى قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو فى الدار الماكرة. ألا ترى قوله: "منها خُلِقْنا، وإليها نعود"، فكيف أقول هذا المقال، ولسانى سُريانى؟ وأمّا الجنّة قبل أن أخرج منها فلم أكن أدرى بالموت فيها، وأنّه ممّا حُكِم على العباد،صُيِّر كأطواقِ حَمام، وما رعى لأحدٍ من ذِمامٍ، وأمّا بعد رجوعى إليها فلا معنى لقولى: "وإليها نعود" لأنّه كذبٌ لا محالة، ونحن معاشرَ أهل الجنّة خالدون مخلَّدون. فيقول، قُضِىَ له بالسّعْد المُؤَرّب: إن بعض أهل السِّيَر يزعم

أنَّ هذا الشّعر وجده يَعْرُب فى متقدِّم الصُّحف بالسُّريانيّة، فنقله إلى لسانه، وهذا لا يمتنع أن يكون. وكذلك يروون لك صلَّى الله عليك لمّا قتل قابيل هابيل:

تغيّرت البلاد ومَنْ عليها فوجهُ الأرض مغبرٌ قبيحُ

وأَوْدَى رَبْعُ أهليها، فبانوا وغُودِرَ فى الثّرى الوجهُ المليحُ

وبعضهم ينشد: "وزال بشاشة الوجهِ المليحِ" على الإقواء. وفى حكايةٍ معناها على ما أذكر أنَّ رجلاً من بعض ولدك يعرف بـ"ابن دُرَيْد" أنشد هذا الشعر، وكانت روايته: "وزال بشاشة الوجه المليحِ"، فقال: أوّلَ ما قال أَقْوَى؟ وكان فى المجلس أبو سعيد السِّيرافى فقال: يجوز أن يكون قال: "وزال بشاشةَ الوجهُ المليحُ" بنصب بشاشة على التّمييز، وبحذف التّنوين لالتقاء السّاكنين كما قال:

عَمْرُو الذى هشَم الثّريدَ لقومه ورجالُ مكَّةَ مُسْنِتون عجافُ

قلت أنا: هذا الوجه الذى قاله أبو سعيدٍ شرٌّ من إقواء عشر مراتٍ فى القصيدة الواحدة. فيقول آدم صلّى الله عليه: أَعْزِزْ على بكم معشر أبينى! إنّكم فى الضّلالة متهوّكون! آليتُ ما نطقتُ هذا النّظيم ولا نُطِق فى عصرى، وإنّما نظمه بعض الفارغين، فلا حول ولا قوّة إلاَّ بالله! كذبتم على خالقكم وربِّكم، ثمّ على آدم أبيكم، ثمّ على حوّاءَ أمِّكم، وكذب بعضكم على بعض، ومآلكم فى ذلك الأرض".

على أن الأمور لا تقف عند هذا الحد، إذ نقرأ بعد هذا مباشرة فى "جمهرة أبى زيد القرشى": "ورُوِى أن بعض الملائكة عليهم السلام قال هذا البيت:

لِدُوا للمَوتِ، وابنُوا للخَرابِ فَكُلُّكُمُو يَصيرُ إلى الذهابِ "

أى أن إبليس ليس هو وحده الذى كان ينظم الشعر بل كانت تنظمه الملائكة أيضا مع أن البيت هو من شعر أبى العتاهية حسبما نعرف جميعا. ثم يطالعنا الكلام التالى فى

"الجمهرة": "قال المفضّل: وقد قالت الأشعارَ العمالقةُ وعادٌ وثمودُ. قال معاوية بن بكر بن الحبتر بن عتيك بن قرمة بن جلهمة بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، عليه السلام، وكان يومئذٍ سيد العمالقة، وقد قَدِمَ إليه قَيْل بن عير، وكانت عاد بعثوه ولقمانَ بنَ عاد وفدًا معهما ليستسقوا لهم حين مُنِعوا الغيث، فقال معاوية بن بكر:

أَلا يـا قَيْـلُ! وَيْحَـكَ! قُـمْ فَهَيْـنِمْ لَعَـلَّ اللهَ يَـصْبَحُنا غَمامَـا

فَيَـسْقى أَرْضَ عـادٍ. إنَّ عـادًا قَـدَ امْـحَوا مـا يُبِينُـونَ الكَلامَـا

مِـنَ العَطَـشِ الـشَّديدِ بـأَرْضِ عـادٍ فَقَـدْ أَمْـسَتْ نِـساؤُهُمو أَيـامَى

وإنَّ الـوَحْشَ تـأْتيهِمْ جهـارًا فَمـا تَخْـشَى لِعَـادِيٍ سِـهامَا

فَقُـبِّحَ وَفْـدُكُمْ مِـنْ وَفْـدِ قَـوْمٍ ولا لُقُّـوا التَّحِيَّـةَ والـسَّلامَا!

وقال مرثد بن سعد بن عفير، وكان من الوفد، وكان مسلمًا من أصحاب هود عليه السلام:

عَـصَتْ عـادٌ رَسـولَهُمو، فَأَمْـسَوْا عِطاشًـا مـا تَـبُلُّهُمُ الـسَّماءُ

وَسُـيِّرَ وَفْـدُهم مِـن بعـدِ شَـهرٍ فـأَرْدَفَهُمْ مَـعَ العَطَـشِ العَمـاءُ

بِكُفرِهِمُـو بِرَبِّهِمُـو جهـارًا علـى آثـارِ عـادِهِمُ العَفـاءُ

... ومن ذلك قول مبدع بن هرم من ولد عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكان من مسلمى ثمود، فقال يذكر الناقة وفَصِيلها:

وَلاذَ بِـصَخْرَةٍ مِـنْ رأسِ رَضْـوَى بـأعلى الـشِّعْبِ مِـنْ شَـعَفٍ مُنيـفِ

فَـلاذَ بهـا لِكَـيْلا يَعْقِـرُوهُ وَفـى تَلْـواذِهِ مُـرُّ الحُتُـوفِ

بِأَسْـهُمِ مُـصْدِعٍ شُـلَّتْ يَـداهُ تَـشُقُّ شِـعافَهُ شَـقَّ الحَنيـفِ

ثَكِلْتُمْ أُمَّهُ،وَعَقَرْتمُوهُ ولم ينْظَرْ به لَهْفُ اللّهيفِ

الخنيف: جنس من ثياب الكتان، وهى الخُنُف، واحدها خنيف. ومصدع: الذى رمى الناقة قبل أن يعقرها قدار. وقال مبدع حين أخذته الصيحة، نعوذ بالله من ذلك:

فكانَتْ صَيحَةً لم تبْقِ شَيئًا بوادى الحِجْرِ وانْتَسَفَتْ رياحَا

فَخَرَّ لِصَوتِها أَجْبالُ رَضْوَى وَخَرَّبَتِ الأشاقِرَ والصِّفاحَا

وأدْرَكَتِ الوُحُوشَ فكَتّفَتْها ولم تَتْرُكْ لطائرِها جَنَاحَا

ونُجِّى صالحٌ فى مُؤْمنيهِ وطُحْطِحَ كُلُّ عادِيٍّ فَطاحَا"

وتناول محمد بن سلام الجمحى هذا الأمر فى كتابه: "طبقات فحول الشعراء" فقال: "وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غُثَاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخْرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر. قال الزهرى: لا يزال فى الناس علمٌ ما بقى مَوْلَى آلِ مخرمة. وكان أكثر علمه بالمغازى والسِّيَر وغير ذلك، فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لى بالشعر. أُتِينا به فأحمله. ولم يكن ذلك له عذرا، فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعارًا كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلامٌ مؤلفٌ معقود بقوافٍ. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حَمَل هذا الشعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف السنين، والله تبارك وتعالى يقول: "فقُطِع دابر القوم الذين ظلموا"، أى لا بقية لهم، وقال أيضًا: "وأنه أهلك عادًا الأولى* وثمودَ فما أبقى"، وقال فى عاد: "فهل ترى لهم مِنْ باقية"، وقال: "وقرونًا بين ذلك كثيرًا"، وقال: "ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قومِ نوح وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله"؟ وقال يونس بن حبيب: أول من تكلم بالعربية ونسى لسانَ أبيه إسماعيلُ بن إبراهيم صلوات الله عليهما.

أخبرنى مسمع بن عبد الملك أنه سمع محمد بن على يقول: قال أبو عبد الله بن سلام (لا أدرى أرَفَعه أم لا، وأظنه قد رفعه): أول من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه إسماعيلُ بن إبراهيم صلوات الله عليهما. وأخبرنى يونس عن أبى عمرو بن العلاء قال: العرب كلها ولد إسماعيل إلا حمير وبقايا جرهم. وكذلك يُرْوَى أن إسماعيل ابن إبراهيم جاورهم وأصهر إليهم، ولكن العربية التى عَنَى محمدُ بنُ على اللسانُ الذى نزل به القرآن وما تكلمتْ به العربُ على عهد النبى صلى الله عليه، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا. لم يجاوز أبناء نزار فى أنسابهم وأشعارهم عدنان. اقتصروا على مَعَدّ. ولم يذكر عدنانَ جاهلى قط غير لبيد بن ربيعة الكلابى فى بيت واحد قاله. قال:

فإن لم تجدْ من دون عدنانَ والدًا ودون معدٍّ فلْتَزَعْك العواذلُ

وقد رُوِىَ لعباس بن مرداس السلمى بيتٌ فى عدنان. قال:

وعَكّ بن عدنان الذين تلعّبوا بمذحجَ حتى طُرِّدوا كلّ مَطْرَدِ

والبيت مريب عند أبى عبد الله. فما فوق عدنان أسماءٌ لم تؤخذ إلا عن الكتب، والله أعلم بها. لم يذكرها عربى قط. وإنما كان مَعَدٌّ بإزاء موسى بن عمران صلى الله عليه أو قبله قليلاً، وبين موسى وعادٍ وثمودَ الدهرُ الطويل والأمد البعيد. فنحن لا نقيم فى النسب ما فوق عدنان، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعرًا، فكيف بعاد وثمود؟ فهذا الكلام الواهن الخبيث، ولم يَرْوِ قطُّ عربى منها بيتًا واحدًا، ولا رواية للشعر، مع ضعف أسره".

ونبدأ بآخر ما قاله ابن سلام فى هذه الفقرة، وهو أن عادا وثمود قد بادتا على بَكْرَة أبيهما فلم يبق من أى منهما باقية، وعلى هذا فمن غير المعقول أن يكون قد بلغَنا من أشعارهما شيء، وإلا فمن أدى إلينا ذلك الشعر، وقد استؤصلوا أجمعين فلم يكن هناك

راوٍ يروى شعرا؟ ولست أذكر الآن أن أحدا ممن تناولوا قضية الشك فى الشعر الجاهلى وتعرض لما قاله ابن سلام قد رد على هذه النقطة، وهو ما يدل على أن الجميع، فى حدود ما أذكر، قد وجد فى كلام ابن سلام برهانا حاسما لا سبيل إلى نقضه. ومنذ عدة سنين كان هناك طالب قد تخرج منذ عام، لكنه أراد أن يحضر محاضرتى للفرقة الأولى فى مادة "ثقافة العرب قبل الإسلام"، وكان الكلام وقتها عن الانتحال فى الشعر الجاهلى، فساق ما قاله ابن سلام على أساس أنه كلام لا يقبل نقضا ولا إبراما. فلما سمعته يقول ما قال وجدتنى أرد آليًّا: وهل كل ثمود قد أبيدت؟ فقال: نعم، هكذا تقول الآيات. فعدت أسأله: أوتظن أن صالحا نبيّهم قد أبيد مع من أبيدوا؟ قال: لا. فسألته مرة أخرى: وهل تظن أن صالحا وحده هو الذى كتب الله له النجاة؟ ألم يكن معه مؤمنون؟ أويعقل أن يكون الله قد أخذهم فيمن أخذ عاطلا مع باطل كما تقول العامة؟ فقال: لا أظن ذلك. قلت له دون أن أتوقف لأراجع نفسى مع أننى لا أذكر أنى فكرت فى الأمر من قبل، إذ كنت كغيرى أقرأ الآيات التى يوردها ابن سلام وأصدّق بها دون أن أنظر ما وراءها: فافتح إذن سورة "هود" على الآيات التى تحكى لنا قصة ذلك النبى وقصة صالح مع قوميهما لنرى ماذا تقول. ففعل. فقرأت على الطلبة قوله تعالى: "وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ

رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨)".

ونظرة إلى الآيات التالية من ذلك النص تُرِى القارئ ما أريد أن أقول: "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)"، "فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ

(٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨)".

فمن الواضح الذى لا تخطئه العين نَصُّ القرآن على أن العذاب والتدمير إنما كان محصورا فى الكافرين من قَوْمَيِ النبيين الكريمين ولم يَعُمّ القومين كلهم أجمعين. وعلى هذا فمن الممكن، إن كان هناك شعر قاله أحد من ثمود، أن يرويه بعض هؤلاء الناجين. ولست أقصد أنه قد وصلنا شعر عن ثمود بالضرورة، بل كل ما يهمنى هنا هو أن كلام ابن سلام ليس بالصلابة التى يتخيلها المتخيلون كما هو بَيِّنٌ جَلِيٌّ. وكنت أقول لطلابى قبل ذلك: فليكن أن ثمود قد هلكت جميعا، أفلم يسمع بشعرها أحد من القبائل المجاورة لها فيرويه للأجيال التالية بعدما أَوْدَى أصحابُه؟ أليس من المحتمل جدا أن يكون بعض أبناء كل من عاد وثمود مسافرين حين فاجأ كلّ قبيلةٍ العذابُ المهلكُ فلم يهلك مع سائر أفرادها؟ فهؤلاء وأمثالهم هم الذين يمكن أن يكونوا قد رَوَوْا لنا أشعار عاد وثمود. وهناك احتمال آخر، وهو أن بعض تلك الأشعار كانت مكتوبة، فلهذا بقيت بعد أن باد قائلوها، ثم ضاعت الكتابة بعد أن أدت دورها. ثم إن ثمودَ (وقِسْ عليها عادًا) لا ترجع فى التاريخ إلى آلاف السنين قبل عصر ابن سلام كما ظن ذلك العالم الكبير، إذ أشار كل من الجغرافى والفلكى الإغريقى المتمصّر بطليموس (من أهل القرن الأول للميلاد) والمؤرخ الرومانى بلينى (من أهل القرنين الميلاديين الأولين) إلى قبيلة عربية اسمها "ثمود" كانت تعيش فى القرن الثامن قبل الميلاد، وهزمها سارجون الأشورى. وهذا الكلام متاح فى مادة "Thamud" بالمجلد الخامس من "Encyclopaedia of the Qur'an: الموسوعة القرآنية" الصادرة عن دار بريل (Brill) فى هولندا. ونص الكلام كالآتى" A people called Thamūd are mentioned in non-Arabian sources such as Ptolemy (Geography) and Pliny (Natural history). The earliest mention is in a list of

"by the Assyrian Sargon II (721-705 b.c.e.) tribes defeated by". بل تذكر المادة المناظِرة بالمجلد العاشر من "The Encyclopaedia of Islam" فى طبعتها الجديدة الصادرة عن ذات الدار أنه كان هناك فى القرن الخامس وحدتان عسكريتان ثموديتان تخدمان فى الجيش البيزنطى: إحداهما فى فلسطين، والأخرى فى مصر. وهو ما يعنى أن ثمود لم تُبَدْ كلها فردا فردا كما وضحنا من قبل. وفى نفس المادة من " Encyclopaedia Britannica" (ط٢٠٠٨م) أن ثمود قبيلة أو عدة قبائل كانت معروفة فى الفترة الممتدة ما بين القرن الرابع قبل الميلاد إلى السابع منه. وفى مادة "صالح" من "الموسوعة العربية العالمية" أنه ليس ثم رأى مؤكد بتحديد الفترة التى وُجِدَتْ فيها ثمود، إلا أن بعض المؤرخين يقولون بأن الثموديين كانوا موجودين منذ أوائل القرن الأول قبل الميلاد إلى أواخر الخامس منه. وتقول موسوعة "Islam.about.com"، تحت عنوان " Prophet Salih"، إن صالحا قد أتى بعد هود بنحو مائتى عام، وإن بعض المؤرخين يحدد الفترة التى ظهر فيها ذلك النبى بخمسمائة عام قبل الميلاد. وفى مادة "ثمود" من النسخة الفرنسية من "Wikipedia" أن ثمود قد بادت قبل ميلاد النبى محمد عليه الصلاة والسلام بقليل. فثمود إذن لا تنتمى إلى ذلك الماضى السحيق الذى ذكره ابن سلام، وعليه فليس ثم موضع للحجة التى شهرها عالمنا الجليل فى وجه من يروون شعرا قاله بعض أفراد تلك القبيلة.

وهكذا يتبين للقارئ أن ما قاله ابن سلام ليس بالقول الصُّلْب أبدا. لكن ابن سلام قد أضاف قائلا فى تسفيه من ظنوا أن من الممكن وصول شعر عربى عن ثمود: "وقال يونس بن حبيب: أوّ لُ من تكلم بالعربية ونَسِيَ لسانَ أبيه إسماعيلُ بن إبراهيم صلوات الله عليهما. أخبرنى مسمع بن عبد الملك أنه سمع محمد بن على يقول: قال أبو عبد الله بن

سلام (لا أدرى أرفعه أم لا، وأظنه قد رفعه): أولُ من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه إسماعيلُ بن إبراهيم صلوات الله عليهما. وأخبرنى يونس عن أبى عمرو بن العلاء قال: العرب كلها ولد إسماعيل إلا حِمْيَر وبقايا جُرْهُم. وكذلك يروى أن إسماعيل بن إبراهيم جاورهم وأصهر إليهم. ولكن العربية التى عَنَى محمدُ بنُ على اللسانُ الذى نزل به القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبى، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا. لم يجاوز أبناء نزار فى أنسابهم وأشعارهم عدنان. اقتصروا على معد، ولم يذكر عدنانَ جاهلىٌّ قَطُّ غير لَبِيد بن ربيعة الكلابىّ فى بيت واحد قاله. قال:

فإن لم تجد من دون عدنانَ والدًا ودون مَعَدٍّ فلْتَرَعْكَ العواذلُ

وقد رُوِىَ لعباس بن مرداس السُّلَمِىّ بيت فى عدنان. قال:

وعَكٌّ بن عدنانَ الذين تلعّبوا بمَذْحِجَ حتى طُرِّدُوا كلَّ مَطْرَدِ

والبيت مريب عند أبى عبد الله، فما فوق عدنان أسماء لم تؤخذ إلا عن الكتب، والله أعلم بها. لم يذكرها عربى قط. وإنما كان مَعَدٌّ بإزاء موسى بن عمران صلى الله عليه أو قبله قليلا، وبين موسى وعاد وثمود الدهر الطويل والأمد البعيد. فنحن لا نقيم فى النسب ما فوق عدنان، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعرا، فكيف بعاد وثمود؟". والغالب على الظن أن ابن سلام يريد أن يقول إن شعرا يرجع إلى ما قبل إسماعيل، وهو الشعر المنسوب إلى ثمود، التى يؤكد أنها بادت منذ آلاف السنين، هو شعر مزيف لأن إسماعيل هو أول من تكلم العربية. والطريف أن عالمنا الكبير يردف هذا بقوله إن إسماعيل قد نسى لغة أبيه، وهو ما يعنى أن إسماعيل قد اخترع العربية اختراعا، ولم يكن لها وجود من قبل. فهل هذا ممكن؟ إن اللغة لا يخترعها إنسان، بل هى نتاج تطورات طويلة معقدة غاية التعقيد. وفضلا عن هذا فإن العرب كانوا موجودين قبل إسماعيل، ومن

المؤكد أنهم كانت لهم لغتهم. فبأى لغة يا ترى كانوا يتحدثون؟ أليس بالعربية؟ أليس إسماعيل الوافد عليهم قد اصطنع لغتهم ونسى لغة أبيه؟ هذا هو الوضع الصحيح للمسألة لا الذى قاله ابن سلام، لأنه هو الذى يدخل العقل ويجرى على أصول المنطق، وإلا فبأية لغة كان العرب يتكلمون قبل مجىء إسماعيل؟ كذلك قال ابن سلام شيئا لا معنى له حين ذكر أن العرب جميعا يرجعون فى نسبهم إلى ابن الخليل، بما يعنى أنهم لم يكن لهم وجود قبله. فعلى من وَفَدَ يا ترى حين أتى هو وأمه إلى مكان البيت الحرام؟ ومن أولئك الذين أصهر إليهم؟ أم ترى الجزيرة العربية لم تكن مأهولة بأحد قبل مجىء إسماعيل وأمه إليها؟ أم تراها كانت مأهولة بالناس إلا أنهم كانوا خرسا لا ينطقون فلم تكن لهم لغة؟ ألا يرى القارئ أن ما قاله ابن سلام فى هذا الموضوع لا يثبت على محك التمحيص؟ وحتى لو سلّمنا بأن إسماعيل هو أول من تكلم العربية فإن ذلك لا يصح اتخاذه سلما لإنكار وجود شعر ثمودى بالعربية. ذلك أن إبراهيم وإسماعيل يسبقان فى الوجود قبيلة ثمود، إذ كان إبراهيم يعيش قبل الميلاد بنحو ألفى عام أو أقل بناء على بعض الآراء حسبما تقول كل من "Encyclopaedia Britannica: دائرة المعارف البريطانية" و"Jewish Encyclopaedia: الموسوعة اليهودية" والنسخة الفرنسية من موسوعة "Encarta: إنكارتا" و"الموسوعة العربية العالمية" والنسخة العربية من "الويكيبيديا" فى المادة المخصصة لخليل الرحمن. وبالمناسبة فكاتب المادة فى النسخة الفرنسية من هذه الموسوعة يؤكد أن إبراهيم النبى المذكور فى العهد القديم والقرآن الكريم ليس له فى الحقيقة أى وجود تاريخى.

وعلى كل حال فهذه هى قصة إسماعيل كما وردت فى "نهاية الأرب" للنويرى، وفيها أنه كان هناك عرب فى تلك البلاد وأنه تزوج منهم مرتين. ومن الطبيعى أن يكون لهؤلاء العرب لغتهم، وإلا فكيف كانوا يتفاهمون؟ أم تراهم قد أسقطوا أمر التفاهم حتى

أتاهم إسماعيل واخترع لهم لغة وعلمهم كيف يتفاهمون بها؟ لنقرأْ ولنغضّ الطَّرْف عن بعض التفصيلات التى تبدو غريبة لا تُسَاغ كمجىء إبراهيم من الشام مرتين لرؤية ابنه وانصرافه فى كلتا المرتين دون أن يراه لا لشىء إلا لأنه وجده يصطاد، وكأنه كان من نَفَاد الصبر بحيث لا يطيق انتظار ابنه ساعة أو ساعتين من نهار كى يكحّل عينه بمرآه بعد كل هذا السفر الناصب وبعد مغيبه عنه سنين طوالا منذ كان طفلا رضيعا حتى بلغ مبلغ الرجال وتزوج، وكعودة إبراهيم بعد ثلاثة وعشرين يوما من الشام إلى بلاد العرب كرة أخرى تلبية لداعى الشوق إلى ولده، وهو الذى لم يطق أن يصبر ساعة أو ساعتين من نهار حتى يعود فَلْذَةُ كبده من البرية حيث كان يصطاد وكأنه عليه السلام مُوَكَّل بذَرْع الفَيَافِى من الجنوب إلى الشَّمال، ومن الشَّمال إلى الجنوب لا يعرف الاستقرار.

كذلك فإن حكاية فرس الجنة التى أحضرها جبريل وحمله عليها هو وزوجه وصغيره الرضيع لم ترد لا فى قرآن ولا فى حديث صحيح. يقول النويرى: "وأقام إبراهيم بالأرض المقدسة ما شاء الله أن يقيم حتى كبرت سارة وأيست من الولد، فخافت من انقطاع نسل إبراهيم عليه السلام فوهبته هاجر، فقَبِلها وواقعها، فحملت بإسماعيل ووضعته كالقمر، وفى وجهه نور نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فأحبته سارة حتى بلغ من عمره سبع سنين، فداخلت الغيرة سارة، ولم تطق أن ترى إبراهيم مع هاجر، فقالت: يا نبى الله، إنى لا أحب أن تكون هاجر معى فى الدار، فحوِّلْها حيث شئت. فأوحى الله إليه أن انقلها إلى الحرم. وجاء جبريل بفرس من الجنة فقال له: يا إبراهيم، احمل هاجر وإسماعيل على هذا الفرس. فأركبَ إبراهيمُ هاجرَ وإسماعيلَ من ورائها، وسار بهما حتى بلغ بهما الحرم. فأوحى الله إليه أَنِ انزل بهما هنا. فأنزلهما بالقرب من البيت، وهو يومئذ أكمة حمراء كالربوة من تخريب الطوفان. ثم قال إبراهيم لهاجر: كونى هنا مع ولدك،

فإنى راجع، فبذلك أمرنى ربى. فلما أراد إبراهيم أن ينصرف قال: "ربنا إنى أسكنتُ من ذريتى بِوَادٍ غير ذى زرعٍ عند بيتك المحرّم" إلى قوله: "لعلهم يشكرون". ثم رجع وتركهما هناك، ولا ثالث لهما إلا الله تعالى.

فلما علا النهار واشتد الحر ونَفِدَ ما معهما من الماء قامت هاجر تعدو يمينا وشمالا فى طلب الماء فلم تجده. فعادت إلى إسماعيل فرأته يبحث بأصابعه فى موضع بئر زمزم، وقد نبع الماء. فسجدت لله، وأخذت تجمع الحصا حول العين لئلا ينتشر الماء، وهى تقول: زم زم يا مبارك. فناداها جبريل: لا تخافى وأبشرى، فإن الله سيعمر هذا المكان. قال وهب: لولا أن هاجر جمعت الحصا حول الماء لتمّت العين نهرا جاريا على وجه الأرض إلى يوم القيامة. قال: وأقبل ركب من اليمن يريدون الشام، وطريقهم على الحرم، فرأوا الطير تهوى إلى الأرض، فقالوا: إن الطير لا تنقضّ إلا على الماء والعمارة. وأقبلوا فرأوا هاجر مع إسماعيل والعين، فسألوها، فقالت: أنا جارية خليل الله إبراهيم، وهذا ابنه. خَلَّفَنا وانصرف إلى الشام. فاستأذنوها فى الماء، فأذنت لهم. ثم قالوا: هل أحد ينازعك على هذا الماء؟ قالت: لا، فإن الله أخرجه لى ولولدى. قالوا: إنْ أحضرنا أهالينا وسكنّا فى جواركم هل تمنعيننا من هذا الماء؟ قالت: لا لأنه لله يشربه خلقُ الله. فرجعوا إلى بلدهم، واحتملوا أهاليهم وأتوا الحرم بهم وبمواشيهم، فصاروا لهما أنسا. ونشأ إسماعيل حتى بلغ مبلغ الرجال، فكان يخرج إلى الصيد معهم ويرجع. وماتت أمه هاجر، وتزوج إسماعيل منهم، وبلغ إبراهيمَ خبرُ موت هاجر فاشتاق إلى إسماعيل، فاستأذن سارة فى ذلك، فأذنت له، فجاءه جبريل بفرس فركبه وسار حتى وقف على بيت ولده إسماعيل بالحرم، فقال: السلام عليكم يا أهل المنزل. فقالت له المرأة: إن صاحب البيت غائب.

فقال إبراهيم: إذا رجع فقولى له: أبدل عتبة دارك، فإنى لا أرضاها لك. وانصرف إلى الشام.

فلما عاد إسماعيل أخبرته بالخبر، فقال: صفيه لى. فوصفته، فقال: الحقى بأهلك. فجاء أهلها وقالوا: ما الذى كرهتَ منها؟ قال: لأنها لم تعرف لخليل الله قدرا. ثم تزوج امرأة من جُرْهُم، فأولدها إسماعيلُ ستةَ أَبْطُن. فاشتاق إبراهيم إلى ولده، فجاءه جبريل بفرس، فركبه وسار إلى الحرم، وقد عُمِرَ ذلك المكان بجرهم. فوقف على باب إسماعيل وقال: السلام عليكم يا أهل المنزل. فبادرت المرأة وسلمت عليه، وقالت: فدتك نفسى. إن صاحب البيت غائب، وإنه يعود عن قريب. قال: هل عندك طعام؟ قالت: نعم، عندنا خير كثير. وجاءته بطبق عليه لحم مشوى من الصيد، وقدح من الماء. قال: فهل غير هذا من حبٍّ أو زبيب؟ قالت: يا عماه، ما هذا طعام بلدنا، ولكنه يُجْلَب إلينا، فانزل بنا وتناول طعامنا. قال: إنى صائم، ولكن على ذرق الطير فاغسليه. وحول قدمه عن الفرس، ووضعه على المقام. فغسلته، فقال: إذا جاء زوجك فسلمى عليه وقولى له: الزم عتبة بابك، فقد رَضِيتُها لك. وانصرف.

فلما رجع إسماعيل من الصيد أخبرته الخبر، فقال: لقد كنتِ كريمةً علىّ، وقد صرتِ الآن أكرم بإكرامك أبى خليل الله إبراهيم. ثم اشتاق إبراهيم إلى ولده ثالثا، وذلك بعد ثلاثة وعشرين يوما، فجاء إليه ولقيه، وأمره الله أن يبنى البيت، فبناه، وأتاه جبريل فعلّمه مناسك الحج...".

أما بالنسبة إلى تأكيد ابن سلام أن اسم "عدنان" لم يرد فى الجاهلية إلا فى بيت واحد فهو غير صحيح، إذ تكرر هذا الاسم فى الشعر الجاهلى لَدُنْ عدد من شعراء ذلك

العصر، منهم المهلهل بن ربيعة وليلى العفيفة وأميّة بن أبى الصلت، الذين يقولون على التوالى:

يَــومٌ لَنــا كانَــت رِئاسَــةُ أَهلِــهِ   دونَ القَبائِــلِ مِــن بَنــى عَــدنانِ

***

يــا بَنِــى الأَعمــاصِ إِمّــا تَقْطَعــوا   لِبَنــى عَــدنانَ أَســبابَ الرَّجــا

...

قُــل لِعَــدنانَ: فُــدِيتُم! شَــمِّروا   لِبَنِــى الأَعجــامِ تَـشْميرَ الــوَحَى

...

نَفَــوْا عــن أرْضِــهِمْ عــدْنانَ طُــرًّا   وكــانوا للقبائــل قاهِرينــا

وفى "مجمع الأمثال" للميدانى بيتٌ شعرىٌّ آخرُ ورد فيه اسم "عدنان"، نسبه المؤلف لعبد الله بن همام أحد بنى عبد الله بن غطفان، مضيفا أنه يُنْسَب للنابغة أيضا، وهو ما عَزَاه البغدادى فى "خزانة الأدب" لهذا الأخير فقط، وإن كان قد عاد فذكر أنه يُنْسَب فى "الفاخر" للمفضل بن سلمة إلى الاثنين جميعا، مع تحديد الغطفانى بأنه عبد الله بن هُمَارِق، ونصه:

بما انتهكـوا مـن رب عـدنانَ جهـرةً   وعـوفٌ ينـاجيهم، وذلكمُـو جَلَـلْ

وفى "الإيناس بعلم الأنساب" يورد الوزير المغربى البيت التالى لسلمة بن قيس العُكْلِىّ:

ويــأتى علــى الفَــوْرَيْن دون مُحَجَّــرٍ   ويَصْعَد فى عـكِّ بـن عَـدْنانَ ناشـدُهْ

كذلك كنا نود لو شرح لنا ابن سلام السبب فى شعوره بالريبة تجاه البيت الثانى الذى ورد فيه اسم عدنان. إلا أنه لم يشرح شيئا، وهو ما تكرر فى قوله، على سبيل الزِّرَايَة، عن ابن إسحاق إنه "كتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلا عن الرجال"، إذ كنا نريد منه هنا أيضا أن يوضح لنا مَنْ هؤلاء الرجال والنساء الذين لم يقولوا شعرا قط، ومع هذا روى لهم ابن إسحاق نصوصا شعرية، لكنه للأسف الشديد لم يفعل، ومن ثم لا نستطيع أن نناقشه، اللهم إلا أن نقول له إنك بهذا قد أصدرت حُكْمًا دون حيثيات وضد لأحد، وزدت فجعلته حكما باتًّا لا استئناف فيه، وهو ما لا يصلح فى ميدان العلم.

ثم نتابع القراءة فنجد عالمنا يقول: "وقال أبو عمرو بن العلاء فى ذلك: ما لسان حِمْيَر وأقاصى اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا. فكيف بما على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووَهْيِه؟ فلو كان الشعر مثل ما وُضِع لابن إسحاق ومثل ما روى الصحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم". ولا أدرى ما علاقة اختلاف عربية حمير وأقاصى اليمن عن عربية الشمال برفضه شعر عاد وثمود. إن عادا وثمود شىء، وحِمْيَر وأقاصى اليمن شىء آخر كما هو واضح. ومن الممكن أن تكون عربية حمير وأقاصى اليمن مختلفة عن عربية الشمال فى عصر أبى عمر بن العلاء دون أن تكون عربية عاد وثمود مختلفة عنها. إن لأهل النوبة مثلا لغة خاصة بهم، وليست مجرد لهجة مختلفة من لهجات اللغة العربية، لكن هذا لا يعنى أبدا أن العربية التى يستخدمها الكتاب النوبيون فى مؤلفاتهم الآن هى عربية أخرى غير العربية التى نعرفها. بل ولا يعنى أبدا أن النوبيين لا يتكلمون العربية أو لا يفهمونها حين يحدثهم بها غير النوبى سواء فى الحياة اليومية أو فى المدرسة والجامعة أو فى وسائل الإعلام من سينما ومذياع وتلفاز.

ثم فليقل أبو عمرو بن العلاء ما يريد، فهل يصح أن نأخذ بكلامه ونتجاهل حقائق التاريخ التى تقول إن عرب الشمال لم يكونوا يجدون أية صعوبة فى التفاهم مع أى شخص أو جماعة من عرب الجنوب فى أى وقت من الأوقات حتى فى الجاهلية. ولقد كان الرسول يرسل أصحابه إلى اليمن وحضرموت سفراء ومبعوثين، كما كان صلى الله عليه وسلم يستقبل فى المدينة كثيرا من أهل تلك البلاد، فضلا عن اتخاذ بعضهم منها مُقَامًا لهم، ولم نسمع قط مع هذا أنه كانت هناك أية صعوبة فى تفاهم الفريقين، اللهم إلا إذا كانت هناك جيوب لغوية تتحدث فى حياتها اليومية بلهجة متميزة على نحوٍ ما عن لهجات عرب الشمال، قليلا كان هذا التميز أو كثيرا، مع اصطناعهم فى إبداعهم الشعرى اللغة الفصحى كما هو الحال فى شعر عمرو بن معديكرب الزبيدى، وهو حميرى، وكذلك الجُعْفِيّة امرأته. ذلك أن كل ما تعيه الذاكرة من الفرق بين نطق اليمنيين ونطق الشماليين هو الحديث الذى رُوِىَ عن النبى يخاطب أهل اليمن بلهجتهم حين قال: "ليس من امْبِرّ امْصِيَامُ فى امْسَفَر"، أى "ليس من البر الصيام فى السفر" وقول أبى هريرة لعثمان حين دخل عليه وهو محصور فى داره: "طابَ امْضَرْبُ"، أى "طابَ الضّرْب" بإبدال "اللام" فى "أل" التعريفية "ميما"، ويُطْلَق على هذه الطريقة: "الطمطمانية"، وإن كان د. جواد على (فى الفصل السابع والثلاثين بعد المائة من كتابه: "المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" تحت عنوان "لغات العرب") يشكك فى صحة ذلك الحديث، مؤكدا أن الحميرية إنما تعرِّف بإلحاق "ألف ونون" فى آخر الكلمة، وأنها تختلف اختلافا شديدا عن لغة الشمال حسبما ترينا النقوش. ولكننا، حين نطّلع بعد قليل على ما كتبه العلماء القحطانيون فى هذا الصدد، وكانوا قريبى عهد بتلك اللغة، وبعضهم كتب ما كتب

اعتمادا على نقوش حميرية أيضا، خليقون بأن نتروى فى الأمر ونقول إن هناك شيئا غاب عن المستشرقين الذين جمعوا تلك النقوش ومن يجرى مجراهم.

إن د. جواد على ينكر ما يقال من أن عرب الشمال لم يجدوا أية صعوبة فى التفاهم مع عرب الجنوب على أيام النبى صلى الله عليه وسلم: لا فى المدينة ولا فى بلاد اليمن ذاتها. ورأيه هو أن هذا ما نفهمه نحن من النصوص، أما النصوص ذاتها فلم تقل شيئا من ذلك صراحة. لكن ماذا نفعل فيما روته كتب السيرة والتاريخ من أن وفود أهل اليمن كانت تخطب وتشعر بهذه العربية التى نعرفها؟ قد يقال إن كتّاب السيرة والتاريخ العرب قد ترجموا ما قاله أهل اليمن ولم يأتوا به على وجهه الأصلى. لكن هذا، إن قُبِل فى الخُطَب، وهو أمر أشك فيه، إذ من الغريب تماما أن يُجْمِع دون أدنى داعٍ أولئك العلماء على الصمت التام فى هذه القضية فلا يقول أحدهم ولو على سبيل الخطإ إنه كان هناك من يترجم بين الفريقين أو إن التفاهم بينهم كان يتسم بالبطء والصعوبة ويعتريه الخطأ كثيرا، فإنه لا يمكن أن يُقْبَل فى الأشعار كما هو الحال فيما ألقاه منها بين يدى النبى فروةُ بن مسيك المرادى (الذى استعمله النبى على صدقات مراد وزيد ومذحج) وعمرو بن معديكرب (من وفد زبيد) ومالك بن نمط (من وفد همدان). وهذه الأشعار لم يشكك فيها ابن هشام (اليمنى الأصل)، وهو الذى لا يترك شاردة ولا واردة إلا وغلَّب فيها الشك على الطمأنينة. وبالمناسبة فمن بين كتبه التى لا تخفى دلالتها فى سياقنا الحاضر "التيجان فى ملوك حمير" (الذى رواه لوهب بن منبه) و"القصائد الحميرية" و"شرح ما وقع فى أشعار السِّيَر من الغريب".

هذا، ولم أتكلم عن الأشعار المنسوبة إلى شعراء حميريين جاهليين تلك التى أوردها ابن إسحاق فى سيرة النبى ولم يعترض عليها ابن هشام أدنى اعتراض، وهى

موجودة لمن يبتغيها فى أول كتابه عن "السيرة النبوية". بل إن ابن هشام ليعلق موافقا على شرح ابن إسحاق لبعض العبارات الحميرية التى تختلف فى طريقة نطقها عن طريقة أهل الشمال كقول أحد أولئك الشعراء فى أبيات له أوردها ابن إسحاق: "لباب لباب"، الذى شرحه ذلك العالم الجليل بأن معناه "لا بأس لا بأس". كذلك يُحْكَى أن أحد ملوك اليمن كان جالسا فوق شَرَفٍ من الأرض عالٍ، وأمامه رجل من عرب الشمال قائما، فقال له: "ثِبْ "، فما كان منه إلا أن رمى بنفسه من فوق المرتفع فتحطم. وقد صنع ذلك ظنا منه أن الملك يأمره بالقفز إلى الأرض، على حين قَصَد الملك أن يقعد. جاء فى "إصلاح المنطق" لابن السكيت ما يلى: "قال الأصمعى: ودخل رجل من العرب على ملك من ملوك حمير، فقال له: ثِبْ (و"ثِبْ " بالحميرية: اقعد)، فوثب الرجل فتكسر. فقال الحميرى: ليس عندنا عربيتكم. من دخل ظفار حَمَّر. قال الأصمعى: حَمَّر: تكلم بكلام حمير". وجاء فى كتاب "الروض المعطار فى خبر الأقطار" لابن عبد المنعم الحِمْيَرى: "ومن كلام بعض ملوكهم: مَن دخل ظفار حَمَّر. وسبب ذلك أن ذا جَدَن الحِمْيَرى خرج يطوف فى أحياء العرب فنزل فى بنى تميم، فضُرِب له فسطاط، فجاءه زرارة بن عدس مصعدا إليه، وكان على قارَة مرتفعة، فقال له الملك: ثب، أى "اقعد" بلغته. فقال زرارة: لِيَعْلَمَنَّ الملكُ أنى سامع مطيع. فوثب إلى الأرض فتقطع أعضاءً، فقال الملك: ما شأنه؟ فقيل له: أَبَيْتَ اللعن، إن "الوثب" بلغته "القفز". فقال: ليست عربيتنا كعربيتكم، من دخل ظفار فلْيُحَمِّر. أى فليتكلم بلغة حِمْيَر".

ومن هذه الرواية يتبين أن الملك الحميرى كان يتكلم العربية مَثَلُه مَثَلُ الرجل الذى ألقى بنفسه من فوق المرتفَع، وإن كانت هناك بعض الفروق اللهجية التى لم تمنعهما من التفاهم طوال الوقت، اللهم إلا حين قضى المقدور أن يَلْقَى ذلك الرجل حتفه فاستخدم

الملك لفظا له معنى فى الحميرية يختلف عن معناه عند عرب الشمال. لكن هذا الأمر موجود داخل عربية العدنانيين نفسها فيما يُعْرَف بـــ"ألفاظ الأضداد"، مثل "جَوْن" (أبيض/ أسود)، و"مأتم" (اجتماع الأفراح/ اجتماع التعازى)، و"قُرْء" (فترة الحيض الشهرية/ فترة الطُّهْر الفاصلة بين الحيضتين)، و"أَوْرَقَ" (قَلّ ماله/ كَثُرَ ماله)، و"شام السيفَ" (أغمده/ سَلَّه)، و"أَكْرَى الشىءُ" (زاد/ نقص)، و"أَسَرَّ الخبرَ" (كتمه/ أعلنه)... ولدينا كتاب نشوان الحميرى (من أهل القرن الثامن الهجرى): "خلاصة السِّيَر الجامعة"، الذى ينطق فيه كلّ أهل اليمن قبل الإسلام شعرا ونثرا بالعربية التى نعرفها. أفلو كان الأمر من الناحية اللغوية على ما يقول ابن سلام أكان نشوان يجهل هذه الحقيقة على هذا النحو المخزى؟ لقد كان نشوان قاضيا وعلامة فى اللغة والأدب وصاحب معجم مشهور ومتميز، وكان يتعصب لقومه ويفاخر بهم العدنانيين، فليس هو إذن مظنة التساهل فى تلك المسألة. بل لقد كتب كتابه هذا شرحا لقصيدة كان قد نظمها تخليدا لذكرى ملوك اليمن القدامى وبعثا لمفاخرهم. وأنا، حين أقول هذا، لا أقصد أن النصوص اليمنية الجاهلية التى أوردها نشوان فى كتابه صحيحة بالضرورة، بل أريد إلى التساؤل بأنه لو لم يكن يمنيو الجاهلية يستخدمون، على نحوٍ أو على آخَرَ، اللغة العربية التى نعرفها فكيف أنطقهم بالعربية؟ وفى كتاب "الإكليل" للهمدانى نصوص حميرية، والملاحظ أنها تتفق والعربية، اللهم إلا فى بعض المفردات التى قد ينظر إليها الناظر، فى عدد من الحالات على الأقل، على أنها مظهر من مظاهر الترادف كالترادف بين "الأصابع" (عربية شمالية نزل بها القرآن) و"الشناتر" (عربية حميرية)، وبين "الصديق" (عربية شمالية نزل بها القرآن) و"الخِلْم" (عربية حميرية) على ما جاء فى كتاب" الصاحبى" لابن فارس. جاء فى كتاب "الإكليل": "قال اللبخى: قال الحميرى فى كلام الحميرية، وذكر خبر الأنواء:

"أقسمن أنجوم أربع، ذو تغيب لو يرى سد بتع، ما بين حاز وبيت دفع". "ذو" بمعنى "لا"، و"لو" بمعنى حتى. ذكره الحسن فى التاسع من "الإكليل". أى أقسمت بالكواكب الأربعة، وهى الصواب، لا تغيب صلاة الغداة حتى يشرب سد بتع من الغيث بآذار، هذا على حد العادة. وفى مسند بصنعاء على بعض الحجارة التى نقلت من قصور حمير وهمدان: "علهان ونهفان، ابنا بتع بن همدان، لهم الملك قديما كان". وخبرنى أحمد بن أبى الأغر الشهابى من كندة قال: قرأت فى مسندٍ بناعط: "علهان ونهفان، ابنا بتع بن همدان، لهم الملك قديما كان". وحدثنى محمد بن أحمد الأوسانى أنه قرأ فى مسندٍ بعمران من البون دار همدان: "علهن ونهفن، ابنا بتع بن همدان صحح حصن وقصر حدقان بن زيد يبن بنينا". كذلك يكتبون بحذف الألف إذا وقعت فى وسط الحروف، وقَفَاهم المسلمون فى كتابة المصاحف فطرحوا ألف "الرحمن" وألف "الإنسن" وألف "السموات". وكذلك "علهن" منقوص من "علهان"، و"نهفن" منقوص من "نهفان"، و"همدن" من "همدان"، و"بنين" من "بنيان". هذا ما تؤديه أحرف الكتاب، وإياها حكى الأوسانى، فأما اللفظ فعلى التمام. وكذلك يحذفون الواو الساكنة من وسط الحروف مثل مبعوث، والياء الساكنة مثل شمليل، والألف الساكنة فى مثل هلال وبلال وأميال". ومن كلام أبى هريرة (الصحابى الجليل اليمنى الأصل) حين سمع كلمة "السكين" أول مرة: "والله إنْ سمعتُ بالسكين قبل ذلك اليوم، وما كنت أقول إلا المُدْيَة". وعلق العلماء على ذلك بأنها لم تكن من لغة قومه.

الجانب التاريخى فى كتاب "التيجان"

والآن إلى الجانب التاريخى من كتاب "التيجان"، ولنأخذ على سبيل التمثيل ما قاله وهب بن منبه عن سام وبعض ذريته: "سام: تفسيره بالعربية اسما، ومات نوح ووَلِى أمرَ أهل الأرض سامٌ، وهو وصى نوح. وقال بعض أهل العلم: إن وصى نوحٍ ابنه نونُ بن نوح. قال وهب: وكان سام جزوعًا من الموت، فسأل نوحٌ اللهَ ألا يميته حتى يسأل الموت. فعاش أربعة آلاف عام: نُبِّئَ ألفين، وعُمِّر ألفين، وإن سام اعتلّ بنسمة فسأل ربه الموت فمات. قال وهب: أتى الحواريون عيسى بن مريم فقالوا له: يا رُوحَ الله وكَلِمَته، أَرِنا جدّنا سام بن نوح ليزيدنا الله يقينًا. فسار بهم عيسى إلى قبر سام فقال: أجبْ بإذن الله يا سام بن نوح. فقام بقدرة الله كالنخلة السّحُوق. قال له: كم عشت يا سام؟ قال له: عشت أربعة آلاف سنة: تنبأت ألفين، وعمرت ألفين. قال له عيسى: فكيف كانت الدنيا هناك؟ قال له سام: كبيتٍ ببابين دخلت من هذا، وخرجت من هذا. ثم إن سام أقرعَ بين أولاده فى الصحيفة، فصارت إلى أرفخشد، فعلم سام أنه خير ولده فأوصى له واستخلفه، ووَلِى أرفخشد. وتفسير "أرفخشد" بالعربى "مصباح مضيء"، و"أرفخشد" باللسان السريانى. واسمه بالعبرانى "أرفخشاد". فعاش أرفخشد أربعمائة وثلاثًا وستين سنة، فكانت الصحيفة عنده لا يعلم ما فيها وهو على دين الله. فساهم بين بنيه، فصارت الصحيفة بالسهم إلى شالخ بن أرفخشد، وولى أمرَ الناس شالخ. و"شالخ" بالعربى "وكيل". وكان على حق، والصحيفة لا يعلم ما فيها، فعاش ثلاثمائة سنة وثلاثًا وستين سنة، فلما حضرته الوفاة ساهم بين بنيه، فصارت الصحيفة إلى عابر بن شالخ، فأوصى شالخ إلى ابنه عابر، فوَلِيَ أمرَ الناس عابر بالحق والعدل، فبنى المِجْدَل وحلب النهر،

والصحيفة عنده لا يعلم ما فيها حتى أراد الله تفرقة الألسن للذى سبق فى علمه لظهور الحجة. قال الله: "واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين".

قال وهب: وإن عابر رأى فى منامه كأن بابًا من السماء فتح له ونزل منه ملَكٌ فأخذ بيديه فأقامه قائمًا فشق صدره ونزع قلبه فشقه وغسله ثم أطبقه، فعاد صحيحًا كما كان، ثم رده فى صدره فعاد سويًّا. فلما أصبح داخَلَتْه وحشةٌ وهيامٌ منها، فتوارى عن إخوته وقومه وأنكره أهله وولده، وامتنع من الطعام. فلما أوى إلى فراشه رأى كما رأى فى الليلة الأولى، فرأى كأن الملَك أتاه فأخذ بيديه وأقامه على نفسه ثم قال: هات الصحيفة يا عابر. فأتى بالصحيفة عابر، فقال له الملَك: اقرأ يا عابر. قال له عابر: ما الذى أقرأ؟ قال: اقرأ "شهد الله بالحق. بسم الله الرحمن الرحيم شهد الله أنه لا إله إلا هو"... إلى آخر الصحيفة. ثم قرأها معه مرارًا، فلما أصبح عابر ازداد وحشة وفرارًا من قومه، فقالوا: إن عابر خُولِطَ فى عقله، فجعلوا يحرسونه، وهو يتوارى عنهم بالصحيفة يتذاكر ما علَّمه الملك ويتدبر الأحرف بعقله وافتراقها كيف، واتصالها كيف نهارَه أجمع. فلما أوى إلى فراشه عادت الرؤيا، ثم أخذ الملك بيده فأقامه وقال: هات الصحيفة يا عابر! فلما أتاه بها قال له: يا عابر، أَمِرَّ هذه الأحرف وسَمِّها بما أعطاك لسانك وشفتاك. ألا ترى أنك قلت "باء" بشفتك؟ فسَمِّ حرف الباء، ثم قلت "سين" فهو سين، ثم قلت "ميم"، فَوَالِ الحرف بالحرف يكن "بسم". وكذلك سائر الحروف فتدبرها وسَمِّها بما أعطاك لسانك وشفتاك لتسعد. فلما أفاق عابر تدبر الصحيفة كما رأى، فسهل عليه أمرها، وفُتِحَتْ له قراءتها، فقرأها وعلم ما فيها فدعا ابنَه هود، وهو هود النبى صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا هود، إن الله اختصنى بعلم عظيم جليل القدر لنا به الشرف فى الدنيا والآخرة. ثم أخرج الصحيفة فقرأها، فقال له هود: يا أبت، رأيت رؤيا كأن آتيًا أتانى فأطعمنى طعامًا، فلما وصل إلى جوفى تضوع له من فمى

نور ملأ ما بين المشرق والمغرب. قال له عابر: أنت يا بنى صاحب الصحيفة. سيقال لك وتقول، فاحترس بما فى يديك. ثم تبلبلت ألسن الخلق فأقاموا بالمجدل وبأرض بابل يموجون ويعالجون اللغات، فسُلِبوا اللسان السريانى إلا أهل الجُودِىّ، فإنهم لم يَعْتَوِجْ لهم لسان: يتكلمون بالسريانى. وأجرى جبريل صلى الله عليه على لسان كل أمة لغة، فنطق بالألسن العجمى والعربى، وأفصح يَعْرُب بالعربية، وهود أبوه، وفالغ بن عابر أخو هود بالجودى يتكلم بالسريانى، ويتكلم مع عابر جميع أخوته وبنى عمه أرم بن سام ما خلا الفُرْس، فإنها تكلمت بلسان أعجمى. وأما عاد وثمود وطَسْم وجَدِيس وعملاق ورائش فإنهم نطقوا مع ابن عمهم عابر بالعربية، فأدركتهم بركتها وشَرُفُوا وتغلبوا على جميع من كان معهم من الألسن حتى زُهُوا على الناس وأظهروا فيهم الطغيان وأشرفوا على الناس، وكانوا كذلك إلى حين، والناس إذ ذاك ببابل.

قال وهب: ولما تغلب المتعربون من ولد سام بن نوح على الناس ببابل وطَغَوْا عليهم وعاثوا فيهم بعث الله إليهم أخاهم هودًا نبيا، فدعاهم إلى طاعة الله، فعَتَوْا. وهو قول الله تعالى: "وإلى عاد أخاهم هودًا". فإنه لما تغلب بنو عابر على جميع أهل الألسن وقهروا الناس هبت الرياح الأربع: الصَّبَا والدَّبُور والشَّمال والجنوب، وهو أن تقف وتستقبل بوجهك مطلع الشمس: فما هبّ عن وجهك فهو صَبًا، وما هب عن يمينك فهو جنوب، وما هب عن شِمَالك فهو شَمَال، وما هب عن خلفك فهو دَبُور.

قال وهب: ولما هبت لقوم تبعوا ريح الصبا أين سارت واقتدَوْا بها، وهم بنو حام، فساروا حتى نزلوا اليمن ولم يُسَمّ إذ ذاك: يَمَن. ثم هبت بعدهم ريح، فتبعها قوم من بنى يافث، وهم القُوط، فنزلوا بجوار بنى حام. والموضع الذى نزلت به بنو حام يسمى: العالية، والموضع الذى نزلت فيه بنو يافث يسمى: الهيفاء، فعملوا الأرض وافتتحوها

وغرسوا الثمار وأَجْرَوُا الأنهار. ثم تنافس بنو حام وبنو يافث فاقتتلوا، فغلب بنو حام على بنى يافث وملكوهم وأجروا عليهم الخَرَاج. والقُوط أول من أدى الخراج على الأرض من ولد نوح. وفى ذلك كله هود يدعو الناس ببابل إلى الله. ثم إن هودًا رأى رؤيا كأن آتيًا أتاه فقال له: يا هود، إذا ضربتْ رائحة المسك إليك أو إلى أحد من ولدك من ناحية من نواحى الأرض فليتبع من وجد رائحة المسلك ذلك النسيمَ، حتى إذا كف عنه فذلك مستقره. وللناس سَعْىٌ، ولله فيه علم وقضاء سبق ذلك، فجاء مكنون علم الله. فقص الرؤيا هود صلى الله عليه وسلم على ولده وقومه. ثم أتاه آت فى الليلة الثانية فقال له: يا هود، من وجد رائحة المسك اتَّبَعَه، فإنه يُفْضِى به إلى خير بلاد الله، وفيه بيته العتيق وحرمه، وهو البيت الذى بناه آدم والملائكة، ورفعه الله من الطوفان. وقال بعض الرواة: بل هدمه قوم نوح. فأقام هود ببابل على الرجاء فلا يجد شيئًا وهو يدعو الناس المتقربين من ولد سام بن نوح عاد أو ثمود وطسمًا وجديسًا ورائشًا وعملاقًا وبنى أرفخشد بن سام، وعاد وإخوانهم بنو إرم بن سام ببابل.

قال وهب: وإن يعرب بن قحطان بن هود النبى عليه السلام وجد رائحة المسك، فقال له هود: أنت ميمون النقيبة يا يعرب. أنت أيمن ولدى. مُرّ، فإذا سكنَ عنك ما تجد فانزل على اليمن ولا تمرّ، فإنها لك خير وطن، وجاور بيت الله يا خير جوار. فسار يعرب بمن تبعه من بنى قحطان وبنى عابر ومن خف معه من بنى أرفخشد فساروا فى جمع عظيم ووجوه أهل بابل. وكان يعرب وسيمًا كريمًا أفضل غلام ببابل، وقال فى ذلك:

أنا الهمام ذو النصيب الأجزلِ ... الأيمن المعروف بالتجملِ
يا قوم، سيروا فى الرحيل الأول ... قحطاننا الأوفر غير الأرذل
إنى أنادى باللسان المسهل ... بالمنطق الأبين غير المشكل

بمنطـــق الأمـــلاك بعـــدى الكُمّـــلِ حـــسرت، والأمـــة فـــى تبلبـــل

أجـــرى بعـــين الـــشمس فـــى تمهـــل لأقهـــــر الأمـــــلاك بالتفـــــضل

عـــن قـــول نـــوح غيـــر ذى تغـــزُّلِ وقـــول نـــوح ذاك علـــم الفيـــصل

يُرْجَـــى لتعقيـــب الزمـــان الأحـــول زمـــان ذى الـــوحى الكـــريم المُفْـــضِل

محمـــد الهـــادى النبـــى المرســـل والنـــاس عنـــد ســـبقنا بمعـــزل

عـــن خيـــر قـــول قلتـــه وأجمـــل لله در الماجـــــــد المـــــــستقبل

قوله: "بمنطق الأملاك بعدى الكمل" طعن فى علم ما يكون بعده. أراد منطق التبابعة من ولده. وأراد بقوله "الزمان الأهول" بعدما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه يحارب الجار جاره، ويعادى المرء كلبه ووالده وأمه.

قال وهب: وقوله: "عن قول نوح" يريد الصحيفة كنز ذرية سام. ثم سكنت عنه رائحة المسك على رأس العالية، فنزل بجوار بنى حام، فشاجره بنو حام كما فعلوا ببنى يافث، فرجعوا إلى يعرب وبنى عابر الذين معه، فقاتلهم قتلاً شديداً فهزمهم يعرب ونفاهم إلى غربى الأرض، فأتاه بنو يافث مذعنين، فأمرهم بالإقامة ورفع عنهم الخراج الذى كانوا يؤدونه إلى بنى حام.

قال وهب: وورث يعرب أرض اليمن. قال وهب: اسم "يعرب" يمن، ولذلك قيل: أرض يمن، وأقام يعرب بها يغرس الثمار ويجرى الأنهار. وكان يعرب أول من قال شعرا ووزنه، وذهب فى جميع الأعاريض، ومدح ووصف وقص وشَبّب، فتعلم منه إخوته وبنو عمه حتى وصل الأمر إلى المتعربين ببابل: عاد وثمود وطسم وعملاق ورائش، فاستطابوا الشعر وخف على ألسنتهم وراموا قوله، فسهل عليهم قوله.

قال وهب: وبلغ عادا ما يَعْرُب فيه هو وبنو أبيه من النعمة ورغد العيش. وكان شَخَصَ مع يعرب من بابل إلى أرض يمن رجلٌ من عاد يقال له: رقيم بن عويل بن الجماهر بن عوص بن إرم، فلما رأى يعرب ومن معه فى أمن وسعة ورغد من عيشهم حسدهم. وكان يعرب يرى الأسباب فى منامه، وكان يخبر بها قومه ليكون الذى رأى رواية: رأى أن آتيًا أتاه فقال له: يا يعرب، هلا جعلت نقبًا فى الجبل الأغر من أرض برهوث فى غربى الأرض، فإنه معدن عقيان، وآخرَ شرقيّه فإنه معدن لجين؟ ففعل. ثم إنه يرى ويستخرج معدن الجوهر من العقيق والجوهر، فكبر اللجين والعقيان فى أرض يمن، وإنما زيد فى "يمن" الألف واللام لصلة الكلام. وإن رقيم بن عويل لما رأى أرض اليمن أتى قومه عادًا وكان فيهم رأسًا فجمع عادًا ثم أخبرهم بما فيه بنو قحطان مع يعرب وأنكم ها هنا لستم على شيء وأعنتم على أنفسكم هودًا بكل من غشيتم عليه وقهرتموه من جميع الناس فصاروا يدًا عليكم مع هود، ولكن لاينُوا هودًا وأعطُوه عقودًا حتى يلين لكم ثم اخرجوا إلى اليمن وانزلوا ناحية منها واسألوا إخوانكم الجوار. فإذا سكنتم كنتم من وراء أمركم. فويل للمنزول عليه من النازل.

قال وهب: فأوحى الله إلى هود: "يخادعونك والله من ورائهم محيط. أعطهم ما سألوا، فانى لا أخشى فوتًا. فوعزتى وجلالى ما ينتقلون إلا من أرضى إلى أرضى، ولا يفرون من قدرتى إلا إلى قدرتى". فأعطاهم هود ما سألوه ورفعوا إلى اليمن فنزلوا بالأحقاف. فلما نزلوا الأحقاف لم يتعرض لهم يعرب بشيء وقال لقومه: إخوانكم لجأوا إليكم. فقال لهم رقيم: تحرموا عليهم الديون حتى يقاتلوكم. فإذا ظفرتم بهم قويتم على حرب هود بقتلكم ذريته، فليس لأحد بكم طاقة. وذلك أن الله خلقهم خلقًا عظيمًا. قال الله تعالى: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إِرَمَ ذات العماد"، أى ذات الأصلاب الطوال التى

لم يخلق مثلها فى البلاد. ثم إن عاداً شاجرت يعرب وبنى قحطان وتسببوا إليهم للحرب. فقال يعرب: يا بنى قحطان، إن كان أعطى الله عاداً أعظم الأجسام فقد أعطاكم الصبر والجَلَد. فقاتِلوهم بإذن الله تعالى، ثم التقى بنو قحطان ويعرُب ومن معهم مع عاد بموضع من اليمن يقال له: "بارق" بين الأحقاف والعالية فاقتتلوا قتلاً شديدًا، فهزمهم يعرب وقتلهم مقتلة عظيمة، فقال يعرب فى ذلك:

لعمرى لقد شادت على الدهر خطة	سيوف بنى قحطانَ فى يومِ بارقِ
لقد حضرت عاد إلى الموت ضحوة	وللمرهفات الغر فوق العواتق
دلفنا إلى عاد بجمع كأنه	على الأرض يعدو كالسيول الدوافق
أرادوا دفاع الله، والله غالبٌ	فكان عليهم منه إحدى الصواعق
لنا لجة وسط العجاج يُرَى لها	على فارسات الصبر حَرّ الودائق
إذا عجّجوا أو لجّجوا خِلْتَ جَمْعَهم	صخورًا تدلت من رؤوس الشواهقِ
بكل فتى ماضٍ على الهول باسقٍ	يلاقى المنايا بالسيوف البوارق
نفينا بنى حامٍ عن الأرض عَنْوَةً	إلى الجانب الغربى رجم المضايق
لنا شرفات العز من حصن عابر	علونا بها عن كل بانٍ وسابقِ
أبونا هو الهادى النبى الذى له	على أمم الدنيا عهود المواثق
سَمَوْنا إلى هودٍ ومن كان مثلنا	يقول بفخر واضح النور صادقِ

قال وهب: وإن الله أنزل على هود صحيفةً أمره فيها بالحج إلى البيت الحرام وأنزل عليه ما بقى على أبيه من العربية وأنزل عليه "اب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ع غ س ش هـ ولا ى"، فأنزل لها تسعة وعشرين حرفًا. ولذلك علا اللسان العربى على جميع الألسن لأن

كل لسان من الألسن مثل العبرانى والسريانى إنما هو اثنان وعشرون حرفًا، وأنزل عليه: يا هود، إن الله قد آثرك أنت وذريتك بسيد الكلام. وبهذا الكلام يكون لك ولذريتك من بعدك استطالة وقدرة وفضيلة على جميع العباد إلى يوم القيامة. ويجرى هذا الكلام فيهم أبد الأبد حتى يختم بنبوءة محمد صلى الله عليه وآله وسلم آخره فى الأصلاب الطاهرات، يخرجه من صلب إلى صلب نبى مطهر، ثم يخرج من ولد أخيك فالغ على عشرة آباء من نوح إليه. قال وهب: فحج هود وقحطان ابنه، ولحق بهم بمكة يعرب بن قحطان، وحج معه يعرب بن قحطان، والبيت مهدوم، فإذا مر بموضع الحجر الأسود وهو مدفون أومأ إليه واستلم فقضى حجه. فقال يعرب: أتأمرنى يا رسول الله أبنيه؟ قال له: لا. قد أخر الله أمره لنبيه يبنيه، وهو نبى من ذرية أخى فالغ يعينه فيه الملائكة مع ولد له، وذلك قول الله: "وإذْ بَوّأْنا لإبراهيمَ مكان البيت". وقال: "وإذ يرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل".

قال وهب: ثم إن رأس عاد، وهو عاد بن رقيم بن عابر بن عوص بن إرم، قال لرقيم: أنت مشؤوم، ورأيك نكد. دعوْتَنا إلى حرب يعرب، ولم يريدونا بسوء، فلما قتل عاد أدركك الجزع فلبست الذل. وإنّ ملك عاد بن رقيم دعاه إلى حرب يعرب وأنشأ يقول:

ألا يـــا عـــادُوَ يْحَكُمُـــو، فـــسيروا	إلـــى العليـــاء واحتملـــوا برُشْـــدِ
لقـــد ظفـــرتْ بنـــو قحطـــان منـــا	بيـــومٍ طـــالعٍ مـــن غيـــر ســـعدِ
لقـــد نزلـــوا الـــبلاد فأوطنوهـــا	وكـــانوا فـــى المحافـــل غيـــر جنـــد
ولِينُـــوا فـــى مداهنـــةٍ لِهُـــودٍ	فقـــد صـــرتم إلـــى ذل وجهـــد
وداروه ومـــن يهـــوَى هـــواه	ليرضـــى مـــن ســـجيتكم بـــوُدّ
وفـــى غـــب النفـــوس يكـــون غـــلا	دفينـــا فـــى الـــصدور لـــه بحقـــد

فأجابوه إلى المسير وخرجوا إلى حربه، ويعرب بمكة ومعه وجوه بنى قحطان وحَمَلَة أمورهم. فلما برزت عاد أنشأ يقول عاد بن رقيم:

قَوْمِى، أجيبوا صوت ذا المنادى سيروا إليهم غير ما أروادِ
إنى أنا عادُ الطويلُ النادى وسَامُ جدى غير جدّ هاد
سيروا إلى أرضٍ بذى أطواد بنهد أرضٍ فى ثرى الثمادِ
إذ يعرب سار على الجياد بظهر قفرٍ أو ببطن وادى
قد شد من قبل على الآساد حتى سبا وعاث فى البلاد
قوموا ليشهد خافق الفؤاد ويلق منا صولة الأعادى
يرمى إلينا مرسن القياد

وبلغ بنى قحطان خروجُ عاد بقومه، فعادوا إليهم فخرجوا والتقَوْا ببارق فاقتتلوا قتلاً شديدًا، ونال بعضُهم من بعض، فكان بينهم قتل عظيم. وبلغ ذلك يعربَ بمكة، فأمره هود بالانصراف إلى اليمن، فلما جاءهم يعرب تهيأ للزحف إلى عاد. وإن الله أمر هودا بالمسير إلى اليمن لينذر عاداً ويدعوهم إلى طاعة الله تعالى. فسار هود حتى نزل بجوار الأحقاف بموضع يقال له: الهنيبق. وأمر يعرب، فكف عما كان عليه من حرب عاد، ودعا عاداً إلى الله تعالى ووعدهم الجنة إن هم أطاعوا الله، وخوّفهم بالنار إن هم لجّوا وتمادَوْا على ما هم عليه من الكفر، فقالوا له: صف لنا هذه الجنة التى وعدتَنا؟ فقال لهم: هى جنة بناؤها بطون العِقْيان، وطينها لُجَيْن، وفيها حور العين أبكار، والفواكه الدائمة التى لا تنقطع، والأنهار من كل الأشربة تجرى بين القصور تحتها، والغرف المبنية من الياقوت على أعمدة اللؤلؤ والزمرد والزبرجد، وقيعانها من فتيت المسك والكافور والزعفران. قالوا: فصف لنا النار. قال لهم: هى سوداء مظلمة مدلهمة، وهى طبقات:

الهاوية والجحيم ولظًا وجهنم والسعير، وأوديتها مَوْبِق والزمهرير، وطعامها الزقوم: مَنْ أكله سالت عيناه وأحرق حشاه، وشرابها الغِسْلِين يتساقط منها لحم الوجوه قبل أن يصل إلى أفواه الشاربين مع مقاربة الزبانية المعذِّبين. فقالوا: وهذا هود قدوَصَف لنا. ولكن أرسلوا إليه وفدًا من أهل الرياسة والشرف والعقول يسألونه أن يريهم الجنة ويريهم النار. فأجمع أمرهم على ذلك فأرسلوا ألف رجل وفدًا. فقال لهم ملكهم عاد بن رقيم: اسألوه أن يريكم هذه الجنة وسَمُّوها على اسم جدكم إرم بن سام بن نوح، فيكون اسم جدكم موجودًا مذكورًا أبدًا، ويكون له به فضيلة على الخلق أجمعين، ويُنْسَى اسم جدهم أرفخشذ فيكون لكم علوًا ولهم ضَعَةً إلى آخر الدهر. فبعثوا منهم رجلاً من أهل الشرف والرياسة والمنطق يقال له: البعيث بن وقاد بن خضرم بن هاد بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح، فوفد البعيث على هود مع ألف رجل فقال له: يا هود، أنت وعدتنا بالجنة ووصفتَها لنا وأوعدتنا بالنار ووصفتها لنا فى الآخرة. وخير هذه الدنيا قد رأيناه، فلسنا تاركين الحاضر للغائب بقول قائلٍ صادق أو كاذب. فنحن من قولك فى شك أو تُبَيِّن ما قلت من جنة أو نار، وإلا فأنت كاذب. وإنا رأينا حور الدنيا وفواكه الدنيا، ثم وصفت لنا ما هو أحسن من هذا، فحقيق على من كان له لبّ أن يرغب فيما وصفت. ثم رأينا نار الدنيا محرِقة، فزعمت أن تلك النار أشد إحراقًا وظلمًا، فحقيق لمن خوفته بها أن يخافها، فأخرجْ لنا مدينة نسكنها ونسميها على اسم أبينا إرم بن سام بن نوح تكون لنا فضيلة إلى آخر الأبد، وأخرج لنا نارًا نتعظ بها ونزداد فيما دعوتنا إليه رغبة وتخرج لنا حيث نريد (وهم يسألونه ذلك على وجه الاستهزاء به وأنه لا يقدر على ذلك). فقال لهم هود: سألتم أمرًا، وهو يسير عليه. ولكن أخشى عليكم ألا تقوموا لله بوفاء العهود، وإنما يقول له: كن، فيكون. فإن عصيتم... الآية قال لما يهلككم: "كن" فيكون، فاذهب يا بعيث مع

أصحابك فخذوا عهودهم لله ثم أعلموهم أنهم إن أعطاهم الله سُؤْ لَهم فكذبوا أن الله يهلكهم بمثلة تكون عبرة للعابرين. فرجع البعيث والذين معه، فقال للملك ولعاد البعيثُ :

لقد جئتكم من عند هود بقصة	وما عنده قول إلى الحق يتبعُ
دعاكم لأمر ليس فيه حقيقة	وما فيه شيء للجماعة ينفع
دعاكم لآمال غَرُورٍ بعيدة	وتركُ الذى يهوَى ألذ وأنفع
كتمت له فى النفس منى جوابه	وظنى به يا عاد ألا يخدع
وإنى مشير فيكمو بنصيحة	وإن أصبحت عاد تطيع وتسمع
فإن تقبلوا رأيى تنالوا سعادة	خذوه برشد فى الذى قال أو دعوا
ذرونى أقلْ مِنْ قبل يبدأ قائل	فإنى له إن قلت بالفلج أطمعُ

فقال له عاد: ما رأيك يا بعيث؟ قال له: نسير إلى هود فنسأله أن يخرج لنا هذه المدينة فى الحفيف. وهو واد يسيل ويخرج من بين جبال وجرز سود شعث، والحفيف نهر يسير ليلاً ونهارًا بالرمل يتهيأ بالرياح العواصف. فخرج من عاد ثلاثةُ آلافٍ وفدا إلى هود، فأتَوْا هودًا فقالوا له: يا هود، أخرج لنا هذه المدينة على عهد الله علينا وعلى قومنا أن نؤمن، وأخرجْها لنا بنهر الحفيف. فسار معهم حتى وقفوا على الحفيف، فقال لهم هود: اذهبوا عنى إلى نجاد الأحقاف. فإذا هبّ لكم نسيم المسك أقبلتم إلىّ. فذهبوا وناجى هود ربه، فأخرج الله لهم قصور الياقوت على أعمدة اللؤلؤ والزمرد والدر والزبرجد، وقصورًا مبنية بلَبِن اللجين والعقيان وقيعانها بالمسك والكافور والزعفران. فلما رأوا ذلك عَشِيَتْ أبصارهم وخشعت قلوبهم وداخل قلوبَهم منها رعبٌ ورَقِىَ إليهم منها نور كشعاع الشمس. فقال لهم هود: هذه التى اسمها إرم على اسم أبيكم. فإن آمنتم كان

لكم بها فضيلة على الخلق إلى يوم القيامة، وإن رغبتم فإن الله قوى عزيز يهلككم كما أهلك من قبلكم ممن كان أشد منكم عتوًّا فى الأرض، فأنا أعلم أنكم لن تؤمنوا ولن يراها أحد من خلق الله إلا رجل من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال وهب بن منبه: رآها تميم الدارى زمانَ عمر بن الخطاب، ثم هموا بدخولها، فعميت أبصارهم واقشعرّت جلودهم، فوَلَّوْا مدبرين، فقال لهم ميسعان بن عفير: ويحكم! آمِنوا، فإنها آية من الله. فقالوا: إن هودًا لَساحِرٌ من سحرة أرض بابل. قال لهم ميسعان: آمنتُ بما جاء به هود. ثم ساروا ومعهم ميسعان يعظهم حتى بلغوا موضعًا يقال له: لكنة المعتال، فأنزل الله عليهم نارًا بريح صرصر عاتية، فأحرقتهم، وخلص ميسعان. فلذلك الموضع يسمى: "الحرقانة" إلى اليوم. فانطلق ميسعان سالمًا حتى أتى عادًا ليلاً أول رقاده فاستوى على شَرَفٍ من رمل ونادى بأعلى صوته وهو يقول شعرًا:

قد منحتُ القوم رشدًا ناصحًا	فأبى لى النصحَ من قد وفدوا
آمِنوا بالله وارْضَوْا بالذى	قال هود، يا لقومى، واعبدوا
بعد أن ساروا وسألوا آية	فرَضُوها بعد عقد عقدوا
جعلوا الآية فيهم نسبا	كانتساب الأب لما وردوا
ثم قالوا: إنما هم إرمٌ	وهى بحر عليها وكدوا
فرَضِى هودٌ بما قالوا معا	فسَنَى المسكُ ولاح العمدُ
قد رَضُوها فرأوْها نسبا	وإليها بعد عادٍ قصدوا
ثم خانوا بعد صلح ورضا	وعهودٍ لنبىٍّ عهدوا
إنما مهْرجُ شؤم، وبه	عن هَوَى هودٍ، لَعَمْرِى، عمدوا

حلـــت النـــار لهـــم، فـــاحترقوا   وكـــذا النـــار علـــيهم تَقِـــدُ

أوقـــد النـــارَ علـــيهم خيـــرُهم   مـــا نجـــا غيـــرىَ مـــنهم أحـــدُ

ويـــلُ عـــاد! ثـــم يـــا ويـــلُ لهـــم!   قـــدّموا شـــيئًا، فهـــا هـــم وجـــدوا

ومهرج هو الذى أمرهم ألا يؤمنوا لهود. وإنها لما سمعت عادٌ ميسعان ثاروا عليه فى جوف الليل، فقص عليهم ما كان من شأنهم، فصاروا إليه يدًا واحدة وقالوا له: يا ميسعان، لقد دلنا شعرك على هوجك. ولقد أعميت على وفدنا بالهوى. ولميسعان منعة بإخوته وولده وقومه، فكرهوا أن يسرعوا إليه بسوء حتى يُعْذِروا إلى قومه. فلما أعذروا إليهم قال له قومه: يا ميسعان، ما حملك على خلاف جماعة قوم عاد؟ قال لهم ميسعان: لقد أوضحت لهم المنهاج وأنرت لهم السراج لئلا يجهلوا الحق لاشتباه الفتنة وتخليط العمى. إنى رأيت آية باهرة للعقول أقام الله علينا بها حجة، ثم صَدَرْنا إلى قومنا منذرين لهم. فرجعوا عنه إلى الجماعة يعتذرون عنه. فكَفَّتْ عنه عاد، فقال لهم هجال بن رفيدة: يا معشر عاد، عليكم بهود لاَ يِنُوه حتى يسكن جأشكم، فإن مصيبتكم بما حل فى وفدكم عظيمة. قال لهم ميسعان: يا قومنا، أجيبوا داعى الله وآمنوا به ثم سيروا إليه فى الهنيبق نستبدل ما هو خير بما هو أدنى. قالوا له: لا حاجة لنا بقولك يا ميسعان. فأنشأ ميسعان يقول شعرًا:

إلـــى جـــزع الهنيبـــق عـــادُ سِـــيرِى   تُـــوَافِى الأمـــنَ والـــرأىَ المبينـــا

وترتحلـــى إلـــى بلـــد كـــريم   وتتخـــذى المـــصانع والعيونـــا

مـــن المـــاء المَعِـــين، وكـــلّ غـــرس   بهـــا ترضَـــوْنه: عنبًـــا وتينـــا

وتتخـــذون فاكهـــة وزرعـــا   ومـــاء فـــى جعـــافِرِه مَعِينـــا

تـــرَوْن بـــرأيكم فيهـــا بحـــزم إذا مـــا كـــان رأيكمـــو مبينـــا

وإن عاداً عملت سدا للماء غرسوا تحته الجنات، فكانت عجيبة بها من جميع الفواكه والزرع، وأقاموا على ملاينتهم لهود حولين كاملين يرجو إيمانهم، وهم من ذلك فى حيرة، ويعرُب معتزل لحربهم، فأرسل إلى هود أن عادا قد مردت وأصرت، فائذن لى فى حربهم. فأرسل إليه هود أن أمر الله أعظم من حربك، فكُفّ .

قال وهب: وإن الله تبارك وتعالى رفع عن عادٍ الغيثَ عامين: العامين اللذين هادنوا فيهما هوداً، فهلكت زروعهم وأسرع الهلاك فى جناتهم، وهلكت أنعامهم، وأسرع الهلاك فى أموالهم، فأتوا إلى ملكهم عاد فشكوا إليه ما نزل بهم، فقال: استسقوا. فقصدوا إلى شيخ لهم يقال له: "قَيْل بن عنز" كان طلق اللسان خطيباً فقدموه وخرجوا خلفه، فأنشأ أبو الهجال يقول:

ألا يـــا قَيْـــلُ ويحـــكَ ! قـــم فهَيْـــنِمْ لعـــــل اللهَ يـــــسقينا غمامـــــا

فيـــــسقى أرض عـــــاد. إن عـــــادا قَـــدَ امْـــسَوْا مـــا يُبِينُـــون الكلامـــا

فمـــا ترجـــو بهـــا غرسًـــا وزرعًـــا ولا الـــشيخَ الكبيـــرَ ولا الغلامـــا

ثم إن عاداً أرسلت إلى هود فشكت إليه ما نزل بها من القحط، فقال لهم هود: إن الله يرسل عليكم ثلاث سحابات: سحابة صفراء وسحابة حمراء وسحابة سوداء ويخيّركم فى إحداهن، فاختاروا لأنفسكم ما شئتم. فرجعوا إلى قومهم فأعلموهم بقول هود. ثم إن الله أرسل ثلاث سحابات: سحابة صفراء وسحابة حمراء وسحابة سوداء، فأقامت عليهم ثلاثة أيام معلقة من جهة المغرب، فأرسلوا إلى هود: إنا قد اخترنا السوداء، ولا حاجة لنا فى الصفراء والحمراء. قال لهم: إن الله يرسلها عليكم. واضمحلت الصفراء وذهبت ثم تبعتها الحمراء، ثم أرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا أحمت الشجر ولونت

الزرع. وكان درب العرب فى الغربى من اليمن، وكان فى الدرب ثلاثة فُجُوج، فنفحت عليهم من الفَجّ الأوسط من الدرب. فذلك الفج يسمى إلى اليوم: فج العقيم. وكان فى طاعة عاد خمسمائة رجل طوال الأجسام كما ذكر الله، فخرج منهم ثلاثمائة رجل إلى الفج يريدون يبنون الفج لدفع الريح، وتعسكر الباقون إلى هود لئلا يأتيهم من خلفهم، وبينهم وبينه ثلاثة أيام، وبينهم وبين يعرب شهران. وإنّ عاد بن رقيم مِلِكهم انتصب إلى هود بعاد، وتكفل الطوال بالفج فجعلوا إذا وضعوا حجرًا قلبته الريح، فقالوا: اجعلوا رجلاً منكم يردون الريح عن البناء حيث يثبت. فقدموا الخلخال، وكان أطول عاد جسمًا وأشدهم بطشًا، وخرج إليه هازل بن غسان فأمسك عنهم الريح، وأسسوا بنيانهم إلى آخر النهار، فعصفت الريح وصرصرت فأخذت رأس الخلخال وهازل فنزعت رؤوسهما بقلوبهما وأكبادهما وحشا أجوافهما فرمت بهما وألقت أجسامهما، وبقى الأساس على حاله لما أراد الله من هلاكهم. وكان ذلك يوم الأحد. ثم أرسل الله الريح يوم الاثنين أول النهار لينة لما أراد الله من هلاكهم وجَعْلهم مثلاً للأولين والآخرين، وعبرة للعابرين. فلما سدوا الفج قلبت الريح الحجر، فأخرجوا شداد بن حمام والأمنع بن أصبغ إلى آخر نهارهم، فهبت الريح وصرصرت ثم أخذت رؤوسهما فنزعتهما بالأحشاء وألقت بأجسامهما. ثم قام يوم الثلاثاء سجار بن الهيعقان ومبدع بن قفال، فنزل بهم مثل ما نزل بأولئك. ثم قام يوم الأربعاء يافث بن شرعب وسلاب بن الهيلجان، فمثل ذلك. ثم قام يوم الخميس شرس ين عقاب وسجيل بن واغل، فمثل ذلك. ثم قام يوم الجمعة تبان بن واقد وميدعان بن السبل، فمثل ذلك. ثم قام يوم السبت سرحان بن عنبل وعامر بن سالف، فمثل ذلك. ثم قام يوم الأحد الرفصان بن هزيم، فمثل ذلك. وخلفه الهندوان بن العميل، فمثل ذلك، فاشتدت الريح وصرصرت لتمام سبع ليال وثمانية أيام فعصفت الريح

وصرصرت فلم تدع منهم أحدًا وهدمت الجبال وخددت الأرض وحطمت الشجر وأخذت الحجر كما قال الله تبارك وتعالى: "وفى عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذرُ من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم"، فأخرجتهم من الكهوف والقُنُون، فكانوا كما قال الله: "وأما عادٌ فأُهْلِكوا بريح صرصرٍ عاتية * سخّرها عليهم سبعَ ليال وثمانيةَ أيام حسوما، فترى القوم فيهاصَرْعَى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية". فلم يبق منهم إلا ميسعان بن عفير وبنوه الذين آمنوا معه، وإنهم لعلى الدنيا إلى اليوم، ولم يبق من الكافرين أحد. فقال فى ذلك ميسعان:

ألـــم تـــر الـــريح العقـــيم الأيِّـــدا	والعـــارض العـــرّاض فيهـــا الأســـودا
تمطـــر بالنـــار وتَهْمِـــى بـــالردى	تخـــدّد الأرض وتَـــذْرِى الجَلْمَـــدا
أرســـلهاصِـــرًّا علـــيهم ســـرمدا	أضـــحت بهـــا عـــادٌ رمـــادا أرمـــدا
فلـــم تـــدعْ فـــى الأرض مـــنهم أحـــدًا	إلا هـــشيمًا بالمنايـــا والـــرّدَى؟

قال وهب: وإن الله أنزل على هود أربع صحف. ثم إن الله تبارك وتعالى قبض هودًا، ودُفِن بالأحقاف بموضع منه يقال له: "الهنيبق" بجوار الحفيف، فإن نهر الحفيف أخرج الله فيه الماء المَعِين، وغُرِسَتْ فيه الثمار من يوم أخرج الله فيه آية هود.

قال وهب عن ابن عباس: إن هودا النبى عليه صلى الله وسلم أرى عادًا الآيتين: الجنة، فأما النار فرأوْها فى وادى برهوت. زعم أن ببرهوت عينًا من عيون جهنم، وأن جهنم فى أرض المغرب يسكن عليها شرار خلق الله، وهم الحبشة.

قال وهب: وأراهم الجنة بنهر الحفيف. قال: وصار أمر هود إلى وصيّه ابنه قحطان، فقام قحطان بأمر الله، وهو خليفة هود، وإنه تغلب بأذربيجان الأسكنان بن جاموس بن جلهم بن شاد بن عجلجان بن يافث بن نوح على جميع الألسن ببابل بعد هود

طسم وعملاق، فهربت بنو عملاق إلى بيت مكة إلى جوار قحطان، ولحقت بهم رائش، وتبعتهم طسم وجديس فنزلوا اليمامة، ورحلت ثمود ونزلوا بمأرب من أرض اليمن، وشكوا إلى قحطان ما نزل بهم من الأسكنان بن جاموس، فجمع قحطان أهل اللسان العربى وزحف إلى بابل يريد الأسكنان بأذربيجان وانتصب له الأسكنان فى بنى يافث، فلقيه قحطان فهزمه، وقتل الأسكنان وفُضَّتْ جموعه من بنى يافث إلى أرض أرمينية وإلى ما خلفها من الأرض وما والاها، وهربت القوط".

وأول ما نلاحظه فى هذا النص طول الأعمار الذى يتمتع به أبطال القصة، إذ كان الواحد منهم يعيش بضع مئات من الأعوام، علاوة على أن ساما قد عُمِّرَ أربعة آلاف سنة، إلى جانب أنه كان يماثل النخلة الشديدة العلو طولا. فهل كان الناس فى ذلك الوقت يبلغون النخل ارتفاعا؟ وهل كانوا طوال الأعمار على ذلك النحو؟ فكيف يا ترى كانوا يتحملون الحياة عبر ذلك الزمن المتناوح بما فيها من ملل وأمراض، فوق ما يعترى كل إنسان من ضعف وعجز فى أواخرها؟ ثم هل فعلا أحيا عيسى ساما كما تقول الحكاية؟ نعم لقد قال القرآن فى أكثر من موضع إنه كان يحيى الموتى بإذن الله، لكن المفهوم أنه كان يحيى الموتى ممن يصاحبونه أو يقابلونه لا موتى العصور السابقة الضاربة فى الزمن وفى بلاد شاسعة البعد عن بلده، علاوة على أن العهد الجديد لم يذكر بل لم يومئ مجرد إيماء إلى شىء من هذا ولا جاء ذكره فى أى حديث للنبى عليه السلام ولا فى كلام أى من صحابته رضوان الله عليهم.

ولدينا كذلك حكاية المَلَك الذى نزل من السماء فشق صدر عابر بن سام بن نوح، وهى قريبة من الحكاية الخاصة بشق صدر النبى محمد عليه الصلاة والسلام. ومثلها حكاية استيحاشه من قومه عَقِبَ ذلك. وعلى نفس شاكلة لقاء سيدنا محمد بجبريل

حين قال له: "اقرأ"، فأجابه: "ما أنا بقارئ"... نجد ذات القصة هنا مع بعض الاختلافات، ومنها أنه فى حين ظل نبينا أميا بعد الوحى كما كان أميا قبله نجد عابرا قد تعلم حروف الألفباء وعرف كيف يقرأ. ولا ينبغى هنا أن يفوتنا أن الألفباء هنا هى ألفباء العربية بما فى ذلك "اللام أَلِف" حَذْوَ ك القُذَّة بالقُذَّة. وهناك كذلك عبارتا "شهد الله أنه لا إله إلا هو" والبسملة، وهما عبارتان قرآنيتان. وهناك الآيات التى نزلت على هود، والتى نسأل: أين وجدها ابن منبه ياترى؟ ألا إن هذا تخرُّص بالغيب لا أساس له من الصحة.

وهناك أيضا وصف الجنة والنار، ويشبه إلى حد كبير ما نلقاه فى القرآن المجيد والحديث الشريف. يقول هود لقومه عاد حين سألوه وصف الجنة: "هى جنة بناؤها بطون العِقْيان، وطينها لُجَيْن، وفيها حور العين أبكار، والفواكه الدائمة التى لا تنقطع، والأنهار من كل الأشربة تجرى بين القصور تحتها، والغرف المبنية من الياقوت على أعمدة اللؤلؤ والزمرد والزبرجد، وقيعانها من فَتِيت المسك والكافور والزعفران. قالوا: فصف لنا النار. قال لهم: هى سوداء مظلمة مدلهمة، وهى طبقات: الهاوية والحجيم ولظًا وجهنم والسعير، وأوديتها مَوْبِق والزمهرير، وطعامها الزقوم: من أكله سالت عيناه وأحرق حشاه، وشرابها الغسلين يتساقط منها لحم الوجوه قبل أن يصل إلى أفواه الشاربين مع مقاربة الزبانية المعذِّبين".

ثم هناك كلام عن السريان واللسان السريانى لا أدرى ما موقعه من حقائق التاريخ فى ذلك الزمن، إذ أين السريان من هذه القصة تاريخا ومكانا؟ ثم هل كانت اللغة العربية معروفة فى ذلك الوقت أيام عابر بن سام بن نوح؟ وكيف كانت كل ريح من الرياح الأربع تهب فيتبعها قسم من أولاد هود حتى يبلغوا الموضع الذى قدر لهم أن يقيموا فيه

ويعمروه؟ ثم ما علاقة هود بالبيت الحرام؟ وقس على ذلك ما تقصه الحكاية مما يثير مثل تلك السؤالات.

قضية النحل والانتحال فى كتاب "التيجان" مرة أخرى

ونأتى إلى الشعر الموجود فى النص، وقد أنكر ابن سلام أن يكون أى شعر من عاد أو ثمود شعرا صحيحا لا لشيء سوى أن عادا وثمود قد استؤصلتا عن آخرهما، ومن ثم كان سؤاله: فمن أدى إلينا هذه الأشعار إذن بعد هلاكهما تماما؟ وقد سبق أن رددنا على هذا السؤال القائم على سوء فهم لآيَتَىْ سُورَتَىِ "النَّجْم" و"الحاقَّة"، إذ المقصود بهلاك الأمتين هو هلاك الكفار لا الأمة كلها كما وضح القرآن فى مواضع متعددة منه حسبما جاء فى نقاشى مع الطالب المذكور فى فصل سابق. أما نحن فسؤالنا: هل كانت العربية فى ذلك الزمن هى كالعربية التى نعرفها منذ الجاهلية القريبة من الإسلام ألفاظا وتراكيب؟

إن ما قرأناه فى بعض ما كتبه المستشرقون عن لغتى تَيْنِك القبيلتين قد يدفعنا إلى رفض تلك الأشعار على أساس أن نطق ألفاظ النقوش التى عثروا عليها يختلف عموما عن نطق الألفاظ العربية التى نعرفها. لكن لا ينبغى التغاضى عن أن الكتابة فى تلك الأزمنة يمكن أن تكون مختلفة عن النطق. ونحن اليوم مثلا لا نضع بوجه عام الحركات فوق حروف لغتنا عند الكتابة، فكيف ينطقها من لا يعرف نحوها ولا صرفها ويريد أن يتعلمها؟ ونحن الآن نكتب حرف الجر "على" بياء فى آخره رغم أنها تنطق ألفا، ونزيد واوا بعد الهمزة فى "أولو/ أولى- أولات" بمعنى "ذوو كذا/ ذوى- ذوات". كما أننا نضيف ألفا بعد واو الجماعة رغم أنها لا تنطق، ونكتب "هذا" و"ذلك، ذلكما، ذلكم، ذلكنّ" بغير ألف بعد الحرف الأول من كل كلمة من تلك الكلمات بينما نمد هذا الحرف عند النطق. وفى المصحف نجد كلمتى "الصلاة والزكاة" مكتوبتين بواو بدل الألف قبل التاء المربوطة. كذلك نحن نهمل تكرير الحرف المشدد فننطقه على أنه حرفان ولكننا لا نكتبه إلا حرفا واحدا. وهمزات الوصل نكتبها لكننا فى العادة لا ننطقها. وهذا كله

وغيره لن يستطيع التنبه إليه من يعرف الحروف العربية ليس إلا ويحاول أن يقرأ نصا عربيا، إذ سوف ينطقه كله خطأ. وفى الإملاء يعلموننا كل هذا أولا حتى نستطيع نطق الكتابة نطقا صحيحا. وهو ألزم من ذلك جدا فى الإنجليزية والفرنسية وغيرهما من اللغات كما نعرف. ولا يصلح أن نتغاضى عن الحقيقة التى تقول إن اللغة العربية ظلت هى هى لم تتغير من ناحية النطق والقواعد النحوية والصرفية وكثير جدا من ألفاظ المعجم طوال ما يقرب من ألفى عام منذ ما قبل الإسلام بنحو مائتى عام حتى وقتنا هذا، فيمكن أن يقول من يرفض القول بأن هذا الشعر مصنوع إن الذى أبقاها كما هى طوال تلك المدة قادر على أن يجعلها لا تتغير مدة مثل هذه منذ عاد وثمود إلى ما قبل الإسلام بنحو مائتى عام. وقد يقول قائل إن النقوش التى يعثر عليها العلماء هى مستوى يختلف عن مستوى النصوص الشعرية، التى لم نسمع أنهم عثروا على شىء منها، إذ يبدو أنه لم يكن من عادة العرب القدماء تسجيل الشعر على جدران المعابد والقصور والأحجار وشواهد القبور والأعمدة وما إلى ذلك. ونحن الآن نشاهد كتابات لرواد الفيس بوك يستخدمون فيها لغة وإملاء عجيبين من يحاول قراءتها يقل إنها لا تنتمى إلى العربية المكتوبة بحال مثل قولهم على سبيل المثال: "زمبقولك، حاكل وجيلك، السنادى، مزنش، تعشب شاى..."، أى "كما أقول لك، سآكل وآتى إليك، هذه السنة، لا أظن، تعال اشرب شايا...".

وفى الريح التى أرسلها الله على عاد تقول الحكاية: "فاشتدت الريح وصرصرت لتمام سبع ليال وثمانية أيام، فعصفت الريح وصرصرت فلم تدع منهم أحدًا، وهدمت الجبال وخدّدت الأرض وحطمت الشجر وأخذت الحجر كما قال الله تبارك وتعالى: "وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم"، فأخرجتهم من الكهوف والقنون، فكانوا كما قال الله: "وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر

عاتية * سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجازُ نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية". فلم يبق منهم إلا ميسعان بن عفير وبنوه الذين آمنوا معه، وإنهم لعلى الدنيا إلى اليوم، ولم يبق من الكافرين أحد. فقال فى ذلك ميسعان:

ألم تر الريح العقيم الأَيّدا والعارض العرّاض فيها الأسودا

تمطر بالنار وتهمى بالردى تخدد الأرض وتَذْرِى الجَلْمَدا

أرسلهاصِرًّا عليهم سرمدا أضحت بها عادٌ رمادا أرمدا

فلم تدعْ فى الأرض منهم أحدًا إلا هشيمًا بالمنايا والرّدَى؟"

وهذا هو ما قلته قبل اطلاعى على كتاب "التيجان" ببضع عشرة سنة حين أكدت للطالب المشار إليه آنفا أن الله لا يمكن أن يكون قد قضى تماما على كل عاد بل على الكافرين منهم فقط، وأنه إن كان ثم شعر عن عاد فمن الممكن أن يكون قد رواه من نجا من المؤمنين، وهو نفس كلام ابن منبه، إذ جعل الميسعان المؤمن ينظم شعرا فى وصف تلك الريح، ومن ثم رواه عنه بطبيعة الحال من سمعوه من المؤمنين الناجين حتى وصل وهبَ بنَ منبه ثم وصلنا من خلال كتابه.

ولكن قبل مغادرة تلك النقطة لا مناص من التوقف مَلِيًّا أمام قول وهب: "وكان يَعْرُب أول من قال شعرا ووَزَنَه، وذهب فى جميع الأعاريض، ومدح ووصف وقَصّ وشبّب، فتعلم منه إخوته وبنو عمه حتى وصل الأمر إلى المتعربين ببابل: عاد وثمود وطسم وعملاق ورائش، فاستطابوا الشعر وخف على ألسنتهم وراموا قوله، فنسج لهم قوله". وهو، كما نرى، كلام يتعاكس تمام التعاكس مع ما رواه بكل بساطة وأريحية

وَهْبٌ نفسه لآدم وإبليس من شعر مما قلنا إنه لا يمكن أن يدخل العقل لمناقضته طبيعة الأشياء. أى أن ملاحظتنا هناك هى فى محلها تماما.

وثم سؤال آخر: هل كان الناس فى ذلك الزمن البعيد على عِلْمٍ مُسَبَّق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟ الواقع أن القرآن لم يذكر سوى بشارة التوراة والإنجيل ولم يرتفع بها إلى ما فوق ذلك. ولا أظن أن هناك مثل تلك البشارة وبكل هذا الوضوح ثم يسكت القرآن عنها فلا يذكرها تدعيما لرسول الله فى إعلانه النبوة ونزول الوحى عليه وتكليف الله له بالقيام بأعباء الرسالة الإسلامية.

كذلك يسترعى الانتباه بقوةٍ تفسيرُ ابن منبه لقوله تعالى: "إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد" على أن المقصود هو البنيان الجسدى، وهو ما يخالف العرف اللغوى القرآنى، فلم يُعْهَد فى كتاب الله تشبيه الأجسام الطويلة أو القوية بالأعمدة. صحيح أن الله قد امتن على قوم عاد على لسان نبيهم هود بأنه زادهم فى الخلق بسطة حسبما تقول الآية التاسعة والستون من سورة "الأعراف"، بيد أن السياق هنا ليس سياق أجسام طويلة أو ضخمة بل سياق كلام عن أبنية وأعمدة. كما أن البسطة التى آتاهم الله إياها بين الخلائق لا تعنى بالضرورة أن يكون الواحد منهم فى طول النخلة السحوق، وإلا فكيف يتعاملون مع سواهم من البشر. ونحن الآن نرى أهل السويد مثلا قد أُوتُوا بوجه عام طولا فى الأجسام، لكن ليس على هذا النحو الشاذ بل المضحك وغير المعقول.

القصص فى كتاب "التيجان" والتراث العربى بوجه عام

على أن أهمية كتاب "التيجان" لا تتوقف هنا، بل له جوانب مهمة أخرى، فهو منجم من القصص العربى الشائق. ونبدأ بما كتب جرجى زيدان (فى الجزء الرابع من كتابه: "تاريخ آداب اللغة العربية" ضمن ما كتب عن "المنقولات الشعرية والأدبية إلى اللغة العربية"، وتحت عنوان فرعى هو "القصص الحديثة أو الروايات") ليكون كلام زيدان تمهيدا للدخول إلى موضع كتاب وهب بن منبه من هذه القضية: قضية الفن القصصى عند العرب قديمهم وحديثهم. قال: "ومما نُقِل من الآداب الإفرنجية فى هذا العصر القصص، وقد فعل نحوَ ذلك نَقَلَةُ العصر العباسى، فنقلوا عن الفرس قصصًا وحكايات ذكرناها فى ما تقدم من هذا الكتاب، وأما أهل هذه النهضة فقد أكثروا من نقل هذه الكتب عن الفرنساوية والإنكليزية والإيطالية، وهى تسمى فى اصطلاح أهل هذا الزمان: "روايات". والروايات المنقولة إلى العربية فى هذه النهضة لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، وأكثرها يراد بها التسلية، ويندر أن يراد بها الفائدة الاجتماعية أو التاريخية أو غيرها. على أنهم نقلوا بعض روايات أو أشعار شكسبير، وهيكو، ودوماس، وموليير، وشاتوبريان، ولافونتين، وراسين، وكورنيل، وفيلون، وغيرهم.

وقد رحّب قرّاء العربية العقلاء بهذه الروايات لتقوم مقام القصص التى كانت شائعة بين العامة لذلك العهد مما ألفه العرب فى الأجيال الإسلامية الوسطى: نعنى قصة على الزيبق، وسيف ذى يزن، والملك الظاهر، وبنى هلال، والزير ونحوها، فضلاً عن القصص القديمة كعنترة وألف ليلة وليلة، فوجدوا الروايات المنقولة عن الإفرنجية أقرب إلى المعقول مما يلائم روح هذا العصر، فأقبلوا عليها. ثم يعد كتاب "التيجان" كتابا فى التاريخ؟عمد الكتّاب إلى التأليف فى هذا الفن من عند أنفسهم تقليدًا للإفرنج. ومن أقدم

المشتغلين فى ذلك فرنسيس مرّاش الآتى ذكره، ثم سليم بطرس البستانى: ألَّف بضع روايات تاريخية نشرها فى الجِنَان، ثم ألَّف صاحب الهلال سلسلة "روايات تاريخ الإسلام" من أول ظهوره إلى الآن: صدر منها ١٧ رواية غير رواياته الأخرى، وأقدم آخرون على التأليف فى هذا الفن. وهو على كونه مقتبَسًا من الإفرنج فقد كان عند العرب من قبلُ كما قدمنا فى غير هذا المكان".

ولى على كلام زيدان بعض التعقيبات: أولاها أنه لم يَذْكُر بين القصاصين العرب فى العصر الحديث سوى النصارى، ويمكن أن نضيف من المسلمين على مبارك، وله "علم الدين"، وعائشة التيمورية، ولها "نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال، واللقاء بعد الشتات"، وأحمد شوقى، وله "شيطان بنتاؤور، وعذراء الهند، ولادياس، ودل ويتمان، وورقة الآس"، وصالح حمدى حماد، وله "الأميرة يراعة، وابنتى سنية"، وإبراهيم رمزى، وله "باب القمر"، ومحمود خيرى، وله "الفتاة الريفية، والفتى الريفى"، وعبد الحميد البوقرقاصى، وله "القِصَاص"، ومحمد لطفى جمعة، وله "ليالى الروح الحائر"، ومحمود حقى، وله "عذراء دنشواى"، ومحمد المويلحى، وله "حديث عيسى بن هشام"، ومحمد حسين هيكل، وله "زينب". ويلاحظ القارئ أنى اقتصرت على الأدباء المصريين وحدهم، وحصرت كلامى فى الأعمال التى صدرت أثناء حياة جرجى زيدان لا غير. والملاحظة الثانية قوله إن له روايات أخرى غير رواياته فى تاريخ الإسلام، وكنت أحب له أن يتبحبح هنا فى التوضيح، فأنا لا أعرف له رواية من هذا النوع سوى "جهاد المحبين". والثالثة ما يبدو فى كلامه من تناقض، إذ قال إن الأدب القصصى كان موجودا عند العرب القدماء، وفى ذات الوقت حكم عليه بأنه مقتبس من الإفرنج. ولست أدرى كيف يستقيم ذلك. لو أنه قال إن العرب عرفوا الفن القصصى منذ القديم، لكن ذلك الفن طرأت عليه

ككل الآداب والفنون تطورات شتى راعاها فى أعمالهم أدباؤنا المحدثون لكان أحجى وأدنى للصواب. والرابعة أنه ليس صحيحا ما قاله من أن كل الإبداع القصصى العربى القديم غير واقعى أو معقول، فكثير من القصص العربى القديم واقعى ومعقول تمام الواقعية والعقل. والخامسة أن هناك منذ عدة عقود اتجاها قصصيا يقوم على المزج بين المعقول واللامعقول وأتانا من أمريكا الجنوبية، ويسمونه: "الواقعية السحرية"، وهذا الاتجاه يتخذ من "ألف ليلة وليلة" على نحوٍ ما نقطة انطلاقه. أى أن القصص اللامعقول فى تراثنا العربى صار هو صرعة العقود الأخيرة ولم يعد شيئا يُتَبَرَّأ منه كما يوحى كلام جرجى زيدان.

وهنا نحب أن نقول إن كتاب "التيجان" فى الواقع يشكل كنزا من القصص الجميل لم يكن يتنبه له د. عبد العزيز المقالح قبل أن يسافر إلى مصر فى سبعينات القرن الماضى للحصول على الدكتوراه ويتصل ببعض الكتاب والنقاد المصريين ويرى اهتمامهم البالغ بالكتاب المذكور، وعلى رأسهم فاروق خورشيد، الذى كان يرى فيه بداية لفجر القصة العربية، وصار المقالح يتابعه على ذلك الرأى فيما بعد حين أعاد قراءته عقب عودته إلى اليمن بعد أن لم يكن يرى فيه سوى مجموعة من الحكايات والأساطير لا قيمة لها، ثم اهتم بنشره بعد ذلك. ولخورشيد فى هذا الصدد كتابان هما "الرواية العربية– عصر التجميع" و"فى الرواية العربية" بذل جهدا كبيرا فيهما للفت الأبصار إلى أن العرب القدماء كان لهم قصصهم، ولم يكن أدبهم، كما كان يُظَنّ حتى ذلك الوقت، سوى قصائد فى الفخر والمديح والهجاء والرثاء، ومجموعة من الخطب وسجع الكهان وما أشبه.

والواقع أنه ما من شعب فى العالم إلا وله قصصه وحكاياته، إذ إن التعلق بالقصص والحكايات أمر فطرى يرجع إلى ما رُكِّب فى نفوسنا من غرائز الفضول والحاجة إلى

التسلية والتطلع إلى معرفة دقائق حياة الآخرين، وبخاصة من الزعماء والأبطال، ولم يكن العرب بدعا فى ذلك بل كانوا يعرفون القصص والأساطير متمثلة فى الحكايات والخرافات التى تدور حول أمثالهم وأبطالهم وشعرائهم وظواهر الطبيعة من حولهم والأحداث القومية الكبرى فى تاريخهم. ولم يكن قصصهم منحصرا فى النثر فحسب بل تضمنت أشعارهم قصصا كثيرا. وكان العرب يقضون أماسيهم أمام خيامهم فى ضوء القمر فى الاستماع إلى قصاصيهم كما لا بد أن يكون الأمر. وفى أسباب النزول الخاصة بسورة "يوسف" نقرأ أن الصحابة عبروا عن رغبتهم فى الاستماع إلى القصص، فنزلت السورة الكريمة تلبية لتلك الحاجة الماسة التى جاشت فى نفوس بعض الصحابة الكرام. فإذا كان الصحابة المشغولون بقضايا الكون والعقيدة والشريعة والذين كانت حياتهم معاناة شديدة جراء ما كان ينزله بهم المشركون من أذى جسدى ونفسى واجتماعى واقتصادى ينشغلون بالقصص كل هذا الانشغال فما بالنا بغير الصحابة؟ كما كان الرسول عليه السلام يقص عليهم وعلى زوجاته بعض القصص الطريف الذى يجمع بين التسلية والوعظ الخلقى والنفسى والإنسانى يبث من خلاله صلى الله عليه وسلم قيم دعوته ومبادئها الكريمة. لكن يلاحظ أنه لم يكن هناك نقد يواكب إبداعنا القصصى القديم كما واكب النقدُ الإبداعَ الشعرىّ منذ وقت مبكر.

إن بعض الدارسين يميلون إلى القول بأن القصة أحد الفنون الأدبية الطارئة على الأدب العربى، استمدّها من الآداب الغربية فى هذا العصر. والحق أن هذا الرأى رأى فطيرٌ متسرِّع، ففى التراث الأدبى الذى خلفه لنا أسلافنا قَصص كثير: منه الدينى، ومنه السياسى، ومنه الاجتماعى، ومنه الفلسفى، ومنه الوعظى، ومنه الأدبى، ومنه ما وُضِع للتسلية ليس إلاَّ، ومنه الواقعى، ومنه الرمزى، ومنه المسجوع المجنّس، ومنه المترسل،

ومنه المحتفَى بلغته، ومنه البسيط المنساب، ومنه الطويل كـ"رسالة النمر والثعلب" لسهل بن هارون (ت ٢١٥هـ)، و"رسالة التوابع والزوابع" لابن شهيد (٣٨٢ - ٤٢٦هـ)، و"رسالة الغفران" و"رسالة الصاهل والشاحج" للمعرى (٣٦٣- ٤٤٩هـ)، و"سلامان وأبسال" و"رسالة الطير" لابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٧هـ)، و"رسالة حى بن يقظان" لكل من ابن سينا وابن الطفيل (ت٥٨١هـ)، والسهروردى (٥٤٩- ٥٨٧هـ)، وبعض قصص" ألف ليلة وليلة"، و"سيرة عنترة"، و"سيرة سيف بن ذى يزن"، ومنه القصير كالحكايات التى تغصُّ بها كتب الأدب والتاريخ المختلفة، وجَمَعَ طائفة كبيرة منها محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى ومحمد أحمد جاد المولى فى أربعة مجلدات كبار، و"كليلة ودمنة" لابن المقفع (ت١٤٦هـ)، و"البخلاء" للجاحظ (١٦٣- ٢٥٥هـ)، و"الفرج بعد الشدة" و"نشوار المحاضرة" للقاضى التنوخى (٣٢٧- ٣٨٤هـ)، و"المقامات"، و"عرائس المجالس" للثعالبى (٣٥٠- ٤٢٩هـ)، و"مصارع العشاق" للسراج القارى (٤١٧- ٥٠٠هـ)، و"سلوان المطاع فى عدوان الأتباع" لابن ظفر الصقلى (ت٥٦٥هـ)، و"المكافأة" لابن الداية (ت٣٤٠هـ)، و"غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة" للوطواط (٦٣٢- ٧١٩هـ)، و"المستطرف من كل فن مستظرف" للأبشيهى (٧٩٠- ٨٥٢هـ)، و"عجائب المقدور فى أخبار تيمور" و"فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء" لابن عربشاه (٧٩١- ٨٥٤هـ)، وبعض قَصص" ألف ليلة وليلة "أيضًا، وما ذكره ابن النديم فى "الفهرست "من كتب الأسمار الخرافية التى تُرجمت عن الفارسية والهندية واليونانية، أو رُوِيت عن ملوك بابل، أو أُلِّفت بالعربية، فكانت حوالى مائة وأربعين كتابًا، المؤلف منها بلسان العرب فقط نحو ثمانين كتابًا، كلها فى أخبار العُشاق فى الجاهلية والإسلام، ودعنا مما أُلِّف بعد ذلك...، ومنه النثرى

كالأمثلة السابقة، والشعرى كشعر الشنفرى عن لقائه بالغول، وقصيدة الحطيئة التى يقول فيها: "وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل"، وكثير من قصائد عمر بن أبى ربيعة، وأبيات الفرزدق عن الذئب، ورائية بشار، ومغامرات أبى نواس الخمرية، وقصيدة المتنبى عن مصارعة بدر بن عمار للأسد...، وهَلُمّ جرًّا.

على أن ليس معنى ذكر الكتب والمؤلفات فى هذا السياق أن الفن القصصى لم يُعْرَف عند العرب إلا فى عصر التدوين بعد أن انتشر نور الإسلام، وتخلَّص العرب من الأُمية، وأصبحوا أمةً كاتبةً قارئة مثقَّفة كأحسن ما تكون الأُمم ثقافةً وتحضُّرًا، بل كان هذا الفن معروفًا قبل ذلك فى الجاهلية. وهذا الحكم يستند، كما قلنا، إلى أن حب القصص نزعة فطرية لا يمكن أن يخلو منها إنسان، فضلاً عن مجتمع كامل كالمجتمع العربى قبل الإسلام. وفى النص التالى يؤكد كاتب مادة "Storytelling" فى النسخة الإنجليزية من موسوعة "الويكيبيديا" عن حقٍّ أن كل المجتمعات البشرية قديمًا وحديثًا قد عرَفت رواية القصص: "People in all times and places have told stories". وهذا أولا، وثانيًا أن لدينا قصصًا كثيرًا تدور وقائعه فى الجاهلية، وينتسب أبطاله إليها، وقد اقتصر دور الكتاب الأمويين والعباسيين على تسجيل ذلك القصص بأسلوبهم، وهذا أبعد ما يمكن أن تكون أقلامهم قد وصلت إليه، ومن الواضح أن هذا القصص يصوِّر المجتمع العربى قبل الإسلام تصويرًا لا يستطيعه إلا أصحابه.

ومن بين القصص العربى القديم القصير نوعا كثيرٌ مما رواه وهب بن منبه عن ملوك اليمن فى كتاب "التيجان فى ملوك حمير"، وهو الكتاب الذى جمع بين التاريخ والحكايات والأساطير، فكان أدبا وعلما فى ذات الوقت. وبطبيعة الحال لم يكن هذا القصص المبثوث فى ذلك الكتاب مقصورا على ذاكرة وهب وحده بل لا بد أنه كان شائعا

منتشرا فى اليمن وربما غير اليمن أيضا. كل ما فى الأمر أن الأقدار قد قيضت له وهبا ليجمعه ويرويه للناس فى عصره والأجيال التالية له، كما قيض له ابن هشام ليصونه لنا، وهو ما ينطبق على كثير من القصص العربى القديم المنتمى إلى الجاهلية وصدر الإسلام حين تحول فى عصر التدوين من قصص شفاهى إلى قصص مكتوب.

ومن ذلك القصة التالية، وهى عن عبد الله بن جدعان وأصل غِنَاه: "قال أبو محمد: حدثنى أبو عبد الأيلى عن ابن لهيعة أنه قال: إن آخر مال الحارث بن مضاض أصابه عبد الله بن جدعان التيمى من قريش. قال: حدثنى مكحول عن أبى صالح عن عَبِيد بن شَرِيّة الجُرْهُمِى، وكان عبيد بن شرية معمّرًا أدرك حرب داحس وبلغ إلى أيام معاوية فى الإسلام، وكان مسامرًا له. قال عبيد: جمع الحجيجَ بمكة عبدُ الله بن جدعان، وكان واسع المال كثير المعروف جوادًا، فاجتمع وجوه العرب فى داره على مائدة، فقلنا له: ما كان أَصْلُ مالك يا عبد الله؟ قال: نعم. كنت صعلوكًا من صعاليك قريش فتاكًا أطلب الغوائر، فبينما أنا كذلك إذ آتانى عامر البرّاض أخو بنى كنانة فقال لى: ألا أَبْغِيك قَنَصًا يا عبد الله؟ قلت: نعم. قال لى: إن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن نزل بعراعر آمنًا على أسرابه. فركبت فرسى وسرت أنا ومالك البراض، فطردنا مائة ناقة حتى ألقيناها بالطائف، فأرسل كلاب إلى قريش أن سفيهكم أغار على وطرد لى مائة ناقة، فليس لكم أن تشهدوا سوق عكاظ ولى لديكم وبرة. وكان عكاظ فى وسط أرض قيس عيلان، وإن قريشًا ائتمرت بقتلى لا أجنى عليهم الجرائر فيُطْلَبون بسيئ عملى، وهم تجار لا يستغنون عن بلد.

فلما أتيت منزلى من الطائف قيل لى: إن قبائل قريش ائتمرتْ بقتلك، فانْجُ بنفسك. فأخذت زادًا ومزادًا وخرجت هاربًا مع الصباح إلى دوحة الزيتون أتظلل فيها،

وقريش تطلبنى. وإنى أتيت دوحة الزيتون هاربًا مستسلمًا للقتل، فلم أزل أهرب وأطلب موضعًا أختفى فيه، والقوم فى طلبى، حتى أتيت إلى حجر طبق على حجر بينهما خلل يدخل منه النحيف متجانفًا فى ذلك الخلل، فدخلت وأدخلت معى زادى ومزادى، ثم هال على السَّرَب، ثم قلت لنفسى: مَوْتِى فى هذا السَّرَب أحبُّ إلى من أن يقتلنى قومى فيشمت عدو ويحزن حبيب وأترك لقومى دخلاً فى قريش. فسرت هاربًا مُلَجِّجًا فى السَّرَب حتى دخلت دارًا عظيمة فيها بيت، وفى وسط البيت جوهر وياقوت ولُجَيْن وعِقْيان، وفيها أربعة أَسِرَّةٍ على كل سرير رجل قاعد، وعلى رأسه لوح من رخام مكتوب بالمسْنَد. فقرأت الألواح فأصبت فيها أن أهل الألواح الحارثُ بن مضاض وعبدُ المسيح ونُفَيْلَة ومضاض بن عبد المسيح، فأقمت خمسة أيام فى ذلك البيت آكل من زادى وأشرب من مزادى حتى أَيِسَتْ قريشٌ منى، فخرجتُ ليلاً وأحرزت فلم أجد أحدًا فى الغيضة، فأخرجت ما أصبت من المال وأخذت الألواح خيفة من قريش تكون لى عندهم براءة، ثم بلغت منزلى فأخذت جملاً وخرجت إلى ذات الحُلَيْفة ليلاً. فلما أصبحتُ أتت سيارةٌ يريدون مَدْيَن، فسرت معهم لا يدرون من أنا ولا ما معى حتى بلغت مصر فبعت ما معى وأصبت ملاً جليلاً فرجعت فنزلت ينبُع على مالك البرّاض أخى بنى كنانة، فقصصت عليه قصتى مع قريش، فقال لى: هاك خمسين ناقة، واجعل أنت مثلها، وسر بنا إلى كلاب. فقلت له: لا. أنا قد وُسِّع على فى رزقى، ولكن اشتر لى مائة. فاشتراها، وسقتها أنا وهو حتى أتينا كلابًا فأرسلنا إلى ابنه جعفر بن كلاب فدفعنا إليه العكرة من النوق، ثم تبعَنا كلاب فى بيته وهو شيخ كبير، فقلت له: لا تموت هزلاً. فلما أتانا قال لى: ارجعوا بالرَّحْب والسعة. فرجعنا من عنده، ثم سرنا إلى سوق عكاظ، وأرسلت إلى قريش فشهدتْ عكاظَ ذلك الموسم، ثم انصرفتُ معهم إلى مكة. فلما ظهر بعض مالى وثبوا على وقالوا: غدرتَ. وأعلمتهم بما

كان من المغارة وأخرجت لهم الألواح، فأرسلوا معى خويلد بن أسد بن عبد العزى، وخُوَيْلد أبو خديجةَ زوجِ النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ووهب بن عبد مناف الزهرى، وهو جد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبو آمنة أم النبى صلى الله عليه وآله وسلم، فسارا معى وسِرْتُ بالألواح حتى دخلت ودخلا معى وعاينّا الأشباح. قالا لى: رُدّ الألواح. فرددت كل لوح إلى مكانه، وخرجنا واعْتَوَنّا على حجر عظيم فسددنا به الخلل لئلا يكون القبر ملعبة للسفهاء".

ويلاحظ القارئ سلاسة اللغة وبساطة معجمها وسهولة تراكيبها وخلوها تماما من المحسنات البديعية وواقعيتها فى الوصف والحوار حتى ليقترب الكلام آنئذ من الأحاديث اليومية لفظا وروحا. بل إن فى الأسلوب بعض الهلهلة والإهمال كما فى النص التالى: "فقال لى: ألا أبغيك قَنَصًا يا عبد الله؟ قلت: نعم" حيث استعمل الكاتب فى جواب السؤال الموجه إلى بطل القصة كلمة "نعم" فى موضع "بَلَى" بعكس ما تُوجِبُ علينا القاعدة النحوية. كذلك نلاحظ شيئا يتكرر على نحو لافت للنظر فى قصص هذا الكتاب، وهو وجود الأسراب (الأنفاق غير النافذة) أسفل الأرض فى كثير منها ونزول أبطالها فى تلك الأسراب ووقوع غرائب الأحداث هناك، ومنها مشاهدة الموتى فى قبورهم على نفس حالهم عند دفنهم، فكأن مَرّ الزمن لا يستطيع أن يفعل بهم أفاعيله، والعثور على كنوز وألواح دوّن فيها الموتى أسماءهم وعبرة حياتهم والدروس التى استخلصوها منها بعد مغادرتهم إياها، ولا أدرى كيف يكتب الميت شيئا عن نفسه بعد وفاته. وفى القصة أيضا إشارة إلى بعض أوضاع الحياة البدوية فى ذلك العصر من إغارة اللصوص على الأغنياء وسرقة إبلهم والفرار بها إلى جهة مجهولة يصعب تتبعهم إليها، وكلام عن سُوق عكاظ.

والقصة تقوم على المغامرة والمطاردة والتخفى فى أماكن لا تخطر على بال إبليس نفسه والهروب من بلد إلى بلد والتنقل من حال إلى حال، ونحن نتابع ونترقب فى شوق ولهفة لتنتهى الأحداث نهاية نبيلة غير متوقعة، إذ يعيد البطل اللص ما سرقه إلى صاحبه بعد سنوات كاملا ثم هو لا يخجل أن يقص حكايته بما فيها مما يدينه دون أن يحاول تزويق شخصيته وخلقه ومداراة جريمته، وهو أحد كبار أهل مكة فى ذلك الوقت وأحد أشهر كرمائها، بل يقص ما وقع بكل دقة وأريحية وعلى مرأى ومسمع من الجميع.

وفى قصص الكتاب الأخرى جن وشياطين وملائكة وسحر وعشق وهيام عنيف وغيرة قاتلة وملوك وقادة وزعماء وحروب ومؤامرات، ودول تقوم ودول تنهار وتختفى، وقبائل تنتقل من مكان إلى مكان، وتحالفات تتكون وتحالفات تتفكك. كما تكثر فى قصص الكتاب الأشعار ما بين أشعار حب وأشعار حرب وأشعار فخر وأشعار هجاء وأشعار وصف وأشعار سياسة وأشعار رثاء وأشعار تأمل فى أحوال الموت والحياة وأشعار دينية. وهذه سمة ملحوظة فى كثير من قصص العرب القديمة، وقد اختفت هذه السمة من القصص العربى الحديث. وبالمثل كثيرا ما يورد رواة القصص فى كتاب وهبٍ نسب أبطالها. ونحن نعرف أن العرب القدامى، وبخاصة فى زمن الجاهلية، كانوا حرصاء على ذكر سلاسل أنسابهم. كذلك تكثر فى الكتاب المَتْح من القرآن المجيد ومن كتب اليهود والنصارى... وغير ذلك. ويشبه "التيجان" كتاب عبيد شرية: "أخبار عبيد بن شرية" فى كثير من هذه الخصائص.

وشىء آخر هو أن حكايات "التيجان"، حسبما سبق بيانه، هى أم السير الشعبية فيما تحويه من جن وشياطين وخوارق، وفى الأبعاد الخرافية التى تتخذها بعض شخصيات هذه السير كما هو الحال فى "سيرة عنترة"، الذى نراه ينتقل من دولة إلى دولة

ويحارب كسرى وقيصر والنجاشى ويواجههم متحديا مهددا مقعقعا. كذلك فقصص "التيجان" هى أيضا أم السير الشعبية فى بساطة لغتها والمراوحة بين النثر والشعر فيها، وبخاصة فى الحوارات التى تدور بين الشخصيات، وإن كانت السير الشعبية تعتمد السجع فى سردها وحواراتها على حين يخلو سرد "التيجان" منه.

إلى أى مدى يُعَدّ كتاب "التيجان" كتابا فى التاريخ؟

ومرة أخرى لا تتوقف أهمية كتاب "التيجان" عند هذا الحد، إذ هو أيضا كتاب فى التاريخ. وتَعَالَوْا نقرأ ما كتبه عنه بعض العلماء المهتمين بهذا الجانب. ففى مادة "التاريخ" من ترجمة "دائرة المعارف الإسلامية" مثلا نقرأ ما يلى تحت عنوان جانبى هو "التاريخ المأثور عن العصر الجاهلى": "لعله كان من المتوقع أن يوجد فى بلاد اليمن ضرب من التأريخ المأثور بالكتابة، فقد كانت هذه البلاد مركز حضارة استقرت دعائمها عهدا طويلا وحُفِظَتْ آثارها بالنقوش المَعِينِيّة والسبئية والحميرية، وكل ما وصل إلينا من هذا القبيل يحمل طابع التأريخ المنقول بالسماع كبضعة أسماء للملوك القدماء وقصص غامضة لُحْمَتُها وسَدَاها المبالغة والتهويل عن عصور غبرت وذكريات قد تكون فى الغالب أكثر من تلك دقة إلا أنها أكثر منها غموضا واستغلاقا عن حوادث وقعت فى القرن السابق لظهور الإسلام. وفى خلال القرن الأول للهجرة أفسح الخيال المجال للتاريخ المأثور بالسماع حتى تألفت مجموعة من الأقاصيص والأساطير زعم أصحابها أنها تاريخٌ وافٍ لبلاد العرب فى العصور القديمة اقترنت به أسماء رجال من طراز وهب بن منّبه وعبيد بن شَرِيّة. وما صنفه الاثنان فى هذا الموضوع دليل واف على أن العرب الأقدمين كانت تنقصهم الملكة التاريخية والنفوذ إلى الحقائق حتى فى أخص ما يتصل منها بحوادث عصرهم (انظر F. Krenko: The Two Oldest Books on Arabic Folklore فى Islamic Culture المجلد الثانى). ومع ذلك فقد قبلت الأجيال التالية رواياتهم فى مجموعها وأدمجها المؤرخون وكتاب آخرون فى مؤلفاتهم.

وكان ابن إسحاق أحد الرواة عن عبيد، وقد جمع عبد الملك بن هشام "كتاب التيجان" لوهب فى وضعه الحاضر، وأَحَلّ الطبرى فى ذخيرته الرائعة فى المعارف الدينية

المواد التى أخذها عنه محل الاعتبار. نعم إن ابن خلدون أشار إلى ما فى بعض تلك القصص اليمانية من السخف والخرافة (جـ ١/ ص ١٣- ١٤) إلا أنه لم يتوان عن إيراد هذه القصص بعينها لتحلية نظرياته والترغيب فيها، ولهذا بقيت فى مجموع التأريخ العربى عنصرا ينافى بداهة العقل ويتعارض مع نمو ملكة النقد وتفهُّم التأريخ القديم تفهُّمًا صائبا سديدا".

وتعقيبى على هذا هو أن ما جاء فى كتاب "التيجان" ليس بضعة أسماء لملوك اليمن بل عشرات من تلك الأسماء، وليس هناك غموض بل حوادث واضحة لكنها كثيرة التفاصيل فى أغلب الأحيان مع سلسة نسب طويلة فى كثير من الحالات لكل نبى أو ملك أو قائد أو زعيم أو مشهور. ولا أظن كل ما يحتويه الكتاب المذكور هو أحداثا أو شخصيات أسطورية بل فيه من الخرافة والواقع كليهما، وإن كان بحاجة إلى دراسة متأنية تعكف على أبطاله وحوادثه واحدا واحدا لمعرفة مدى ما فى كل منها من هذا وتلك بدلا من إطلاق حكم عام على كل شىء بأنه زائف لا يستحق التصديق والاحترام.

وقد أثبت د. جواد على فى الفقرات التى عقدها لوهب بن منبه فى كتابه: "المفصّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" رأيه فى الرجل فقال: "وأما "وهب بن منبه" فقد كان من أهل "ذَمَار"، وكان قصّا أخباريًّا من الأبناء، ويقال إنه كان من أصل يهودى، وإليه ترجع أكثر الإسرائيليات المنتشرة فى المؤلفات العربية. وقد زعم أنه كان ينقل من التوراة ومن كتب بنى إسرائيل، وكان يقول: "قرأت من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتابًا"، وأنه كان يتقن اليونانية والسريانية والحميرية، ويحسن قراءة الكتابات القديمة الصعبة التى لا يقدر أحد على قراءتها. قال المسعودى: "وُجِد فى حائط المسجد لوح من حجارة فيه كتابة باليونانية، فعُرِض على جماعة من أهل الكتاب، فلم يقدروا على قراءته،

فوُجِّه به إلى وهب بن منبه، فقال: هذا مكتوب فى أيام سليمان بن داوود عليهما السلام، فقرأه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. يا ابن آدم، لو عاينت ما بقى من يسير أجلك، لزهدت فيما بقى من طول أملك، وقصرت عن رغبتك وحيلك. وإنما تلقى ندمك إذا زلّت بك قدمك، وأسلمك أهلك، وانصرف عنك الحبيب، وودعك القريب، ثم صرت تُدْعَى فلا تجيب، فلا أنت إلى أهلك عائد، ولا فى عملك زائد. فاغتنم الحياة قبل الموت، والقوة قبل الفَوْت، وقبل أن يؤخَذ منك بالكَظْم، ويُحَال بينك وبين العمل. وكتب فى زمن سليمان بن داوود". وفى كتاب "التيجان فى ملوك حمير"، رواية ابن هشام، نماذج لقراءته، وهى على هذا النسق الذى يدل على سخريته بعقول سامعيه إن كان ما نُسِب إليه حقًّا، وأنه قرأه عليهم صدقًا، ومن يدرى؟ فلعلّه كان لا يعرف حروف اليونانية، ولا يميّز بينها وبين الأبجديات الأخرى. ثم هل يعجز أهل دمشق عن قراءة نصّ يونانى أو سريانى أو عبرانى، وقد كان فيها فى أيام وهب بن منبه علماءُ فطاحلُ حَذَقَةٌ بهذه اللغات هم نفر من أهل الكتاب؟

والذى يهمنا من أمر وهب بن منبه أخباره عن الجاهلية. ولوهب أخبار عن اليمن والأقوام العربية البائدة، ونجد روايته عن نصارى نجران وتعذيب ذى نواس إياهم، وقصة الراهب فيميون مطابقة للروايات النصرانية ولما جاء فى كتاب شمعون الأرشامى عن هذا الحادث. والظاهر أنه كان قد أخذها من المؤلفات النصرانية أو من أشخاص كانوا قد سمعوا بما ورد عن حادث نجران من أخبار. وقد ذكر أن وهبًا كان يستعين بالكتب، وأن أخاه همام بن منبه بن كامل بن شيخ اليمانى أبا عقبة الصنعانى الأبناوى كان يشترى الكتب لأخيه.

أما ما ذكره عن التبابعة والعرب البائدة فإنه قصص. وأما علمه بأخبار العرب الآخرين فيكاد يكون صفراً، فلا نجد فى رواياته شيئًا يعد تأريخًا لعرب الحيرة أو الغساسنة أو عرب نجد. فهو فى هذا الباب مثل عَبِيد بن شَرِيّة من طبقة القصاص لم يصل إلى مستوى أهل الأخبار، ولعله وجد نفسه ضعيفًا فى التأريخ وفى أخبار العرب فمال إلى شيء آخر لا يدانيه فيه أحد، وهو مرغوب فيه مطلوب، وهو القَصَص الإسرائيلى وما يتعلق بأقوام ماضين ذكروا فى القرآن الكريم، وكانت بالمسلمين الأولين حاجة إلى من يتحدث لهم عن ذلك القصص وأولئك الأقوام. ومن الكتب المنسوبة إلى وهب "كتاب الملوك المتوّجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم"، وقد تناول أخبارَ التبابعة. والظاهر أن "كتاب التيجان فى ملوك حمير" الذى طبع فى الهند، رواية ابن هشام أبى محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المتوفى سنة ٢١٣ أو ٢١٨هـ، قد استند إليه بعد أن أضاف إليه أخبارًا أخذها من مؤلفات محمد بن السائب الكلبى وأبى مخنف لوط بن يحيى وزياد بن عبد الله بن الطفيل العامرى أبى محمد الكوفى المعروف بالبكائى رواية ابن إسحاق، وهو خليط من الإسرائيليات والقصص اليمانى ومن مواد أخرى قد تكون من وضعه، أو من صنعة آخرين صنعوها قبله، فأخذها من ألسنة الناس، مثل تلك القصائد والأشعار الكثيرة المنسوبة إلى التبابعة وغيرهم. وقد أورد فى الكتاب أسماء أُخذت من التوراة ذكرها بنصها كما تلفظ بالعبرانية مما يبعث على الظن أنها أخذت من مَوْرِدٍ يهودى. وأما سائر الأخبار الواردة فى الكتاب فالغالب عليها السذاجة، إذ لا نجد فيها عمقًا ولا مادة تاريخية غزيرة كالمادة التى نجدها فى مؤلفات ابن الكلبى، وفى مؤلفات الهمدانى الذى عاش بعده.

وأودّ أن ألفت أنظار العلماء إلى أهمية روايات وهب بن منبه وأخباره بالنسبة إلى من يريد الوقوف على الدراسات التوراتية والتلمودية فى ذلك العهد، ففيها فقرات كثيرة زعم وهب، أو آخرون قالوا ذلك على لسانه، أنها قراءات، أى ترجمات، أُخذت من التوراة ومن كتب الله الأخرى. وإذا ثبت بعد مقابلتها بنصوص التوراة والتلمود والمشنا وغيرها من كتب اليهود أنها من تلك الكتب حقًا وأنها ترجمات صحيحة، فنكون قد حصلنا بذلك على نماذج قديمة لمواضع من تلك الكتب قد تفيد فى إرشادنا إلى ترجمات أقدم منها، كما تعيننا فى الوقوف على النواحى الثقافية للعرب فى ذلك العهد".

ويرى د. حسين نصار، فى الجزء الخاص بوهب بن منبه من كتابه: "نشأة التدوين التاريخى عند العرب"، أن من السهل على كل من يتصفح كتاب "التيجان فى ملك حمير" التنبه إلى أنه ليس كله لوهب بل تصرف فيه ابن هشام راويه كما تصرف فى سيرة ابن إسحاق، وإن لم ينص فى "التيجان" على هذا التصرف كما نص عليه فى السيرة النبوية، ولكننا مع ذلك نستطيع تمييز الإضافات التى جلبها من مصادر أخرى كالأخبار التى يرويها عن محمد بن إسحاق عن طريق تلميذه البكائى راوى السيرة أو عن طريق أبى عباد الهمدانى وعن طريق أبى مخنف وعن طريق محمد بن السائب المكى وعن طريق عبيد بن شرية... إلخ. وزاد د. نصار فقال إن جل الأخبار قبل الصفحة المائة من "التيجان"، فيما هو ملاحظ، منسوبة إلى وهب بخلاف الأمر بعد ذلك، إذ صارت تلك النسبة تقل فيما بعد إلى درجة قريبة من الانعدام.

كذلك يرى د. نصار أن وهبا فى كتابه هذا يطلق لخياله العنان فى تصوير الوقائع بحيث تخرج إلى حد الأساطير التى لا أصل لها. ولهذا يسمى روايات ابن منبه بـ"القصص التاريخية"، ويصفه هو نفسه بأنه قصاص لا مؤرخ. لكن لا أظن وهبا، وهو

يروى ما رواه عن اليمن وملوكه وقادته ووقائع حوادثه وهجراته وتحالفاته وتآمراته وحروبه، إلا كان يعتقد أنه يكتب تاريخا صحيحا. ذلك أن الناس فى ذلك الوقت كانت تصدق بسهولة ما تسمعه أو تقرؤه من العجائب والغرائب. بل إن كثيرا من البشر الآن رغم كل التقدم العلمى الذى أحرزته الإنسانية لا يزالون يُلْقُون آذانهم وعقولهم لمثل تلك الروايات ظانين أنها صحيحة. كذلك من الطبيعى أن تكون الأمور فى فواتحها بدائية، وتكون المحاولات العربية التاريخية الأولى غير متمحضة للحقائق ثم تترقى مع الزمن وتتخلص من شوائبها، ويتخفف التاريخ والعلم مما خالطهما من خرافات وزيوف وإضافات.

بل إن تأليف تواريخ تلك الدول القديمة القائم على المنهج العلمى يستند فى كثير من المواضع إلى الخيال يملأ به العلماء الثغرات التى يجدونها أمامهم ولا يستطيعون أن يملأوها بالحقائق الصلبة لأن الاكتشافات والكتابات الأثرية تنقصهم أو لا تسعفهم بالشكل المطلوب، ودعنا من التلاعب الذى كثيرا ما يطول تلك الآثار والكتابات. وما أكثر ما نجد الاختلافات الحادة بين العلماء فى تقدير أعمار الدول القديمة ومساحاتها أو ترتيب قوائم حكامها أو أسمائهم، وهى اختلافات واسعة تصل زمنيا إلى القرون لا إلى السنين فقط كما نرى ذلك مثلا فيما راجعناه من كتب عن تاريخ اليمن القديم مثل "اليمن فى حاضرها وماضيها" لأحمد فخرى، و"العرب قبل الإسلام" لخليل يحيى نامى، و"تاريخ اليمن السياسى- اليمن قبل الإسلام" لمحمد يحيى الحداد، و"المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" لجواد على... وهذا كله معروف رغم تضافر جهود العلماء من كل تخصص ومن كل صقع ومن كل اتجاه فكرى ورغم تعاون الحكومات المختلفة فى هذا الميدان، فما بالنا بوهب وأمثاله ممن كانوا يعتمدون على أنفسهم وحدها وفى كثير من

معارفهم على الروايات الشفوية ولا يجدون حولهم من يعاونهم أو يموّلهم أو يراجع معهم ما يكتبون، وفى زمن كان الناس يصدقون ما نراه اليوم خرافات وأساطير غير معقولة؟ وعلى هذا فمن الواجب قراءة ما كتبه وهب وغيره من مؤرخينا القدامى قراءة فرزية متأنية هدفها فصل التاريخى الواقعى عن الأسطورى اللامنطقى عوضا عن التعامل الجزاف مع كل ما كتبوه على أنه جميعه خرافات ليس لها أصل ولا حقيقة.

إن التعلق بالمكتوب قد يتجاوز الحد المعقول ويصير هوسا بحيث لا يقبل غيره مع أن المكتوب كثيرا ما يدخله الزيف كما قلنا. ولن نذهب بعيدا فقد كانت الكتب المدرسية المصرية كلها تقول فى نفس واحد إن أول رئيس لمصر بعد الثالث والعشرين من يوليه سنة ١٩٥٢م هو جمال عبد الناصر متجاهلة كلها تمام التجاهل الرئيس محمد نجيب، الذى اعتُقِل فى فبراير ١٩٥٤م وظل محبوسا محروسا فى دارةٍ للسيدة زينب الوكيل زوجة مصطفى النحاس بالمرج حتى تولى الرئيس السادات الحكم وأفرج عن الرجل وأعاد إليه اعتباره عام ١٩٧١م. كما أن لدينا رؤيتين للملك فاروق: الأولى الرؤية الرسمية، وهى أنه كان سكيرا عربيدا يطارد النساء ويعتدى على حرمات البيوت ويمارس القمار، وخان قضية فلسطين وتاجر فى الأسلحة الفاسدة التى كانت سببا فى هزيمة الجيش المصرى فى حرب ١٩٤٨م، وعاش منفصلا عن الشعب تحيط به بطانة مغرقة فى الفساد والانحراف، ورؤية أخرى شرعت تظهر فى الفترة الأخيرة هى على العكس من ذلك إلى حد بعيد. ومعروف بين الحكام القدماء هنا وهناك أن الحاكم الجديد كثيرا ما كان يطمس إنجازات الحاكم السابق أو الحكام السابقين عليه وينسبها إلى نفسه ماحيا كل كتابة تقول بغير ما يريد. وبطبيعة الحال ما أكثر الشياطين بين الشعب كباره وصغاره الذين كانوا يسارعون فى مساعدته على أغراضه الإبليسية وكأنهم يؤدون فرضا دينيا

سيبوّئهم أعلى مكان بالفردوس الأعظم، ويفعلون ذلك بكل جد ووقار منكلين بكل من توسوس إليه فى الخفاء نفسه بغير الكذب الذى يروجون وينصرون.

كذلك هل كان أحد فى العالم قبل عدة عقود يعرف أن الغربيين الذين اكتشفوا أمريكا الشمالية قد قضوا على عشرات الملايين من الهنود الحمر واستأصلوهم استئصالا؟ ولقد كنت فى صباى، إذا دخلت دارا للخيالة وشاهدت فلما سنمائيا من أفلام الغرب الأمريكى، واحدا ممن يصفقون دائما وبكل قوة وحماسة للرجل الغربى حين ينتصر فى معركة على أحد الهنود الحمر، الذين كانوا يرتبطون فى أذهاننا بالخبث والشر والحقد على الرجل الأبيض الملائكى ظلما وعدوانا. وها نحن نرى الآن فى أستراليا انتشار حركة بين طوائف من المواطنين الغربيين الواغلين تنادى بالاعتراف بالسكان الأصليين. إى والله: الاعتراف بالسكان الأصليين لا العكس. هل رأيتم فجورا كهذا الفجور؟ كذلك قرأت منذ نحو عقدين مقالا فرنسيا كتبه طبيب من الفرنسيس ينكر معركة الخندق ويطالب بحفر شوارع المدينة المنورة كى يريه المسلمون مكان حفر الخندق، الذى يزعم هذا الملتاث أنه كان محفورا فى قلب الصخر، ومن ثم فلا بد أن تكون هناك آثار تكسير الصخور فى موضع الحفر، وإلا ظل على إنكاره المجنون لتلك المعركة. وقد كتبت ردا على ذلك الخبل العقلى فى حينه وبينت أن الخندق كان محفورا فى منطقة ترابية وأنه كانت هناك صخرة واحدة غير كبيرة خبطها بمعوله رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلعها من مكانها، وكان الله يحب المحسنين. وهناك أيضا من المستشرقين من ينكرون وجود النبى محمد مؤكدين فى لُوثَة مسعورة أن الدولة الإسلامية لم تكن معروفة قبل تولى الأمويين الحكم واختراعهم القرآن وصناعتهم لشخصية محمد وادعائهم نزول الوحى عليه، ناسين أنه لو كان الأمر كذلك لفضحت فارس والروم هذا الزعم الأموى

وبينتا الحقيقة ولَمَا دخل غير العرب الإسلام بل لما دخل العرب المناهضون لهذه الخدعة ولكشفوا ما حدث وهتكوا الزيف، علاوة على وجود أمثال يوحنا الدمشقى النصرانى الذى كان يعمل موظفا كبيرا فى البلاط الأموى وكتب عن الإسلام والقرآن والنبى محمد بغير العربية صفحات غاية فى الأهمية من كتابه عن الهرطقة من وجهة نظر نصرانية، مهاجما رسولنا الكريم، ومع هذا لم تفلت منه كلمة واحدة ولو على سبيل الرمز تقول شيئا يتمشى مع هذا السعار الذى أصاب صاحبى كتاب "الهاجرية" الصادر فى أواخر سبعينات القرن الماضى ومن يشايعونهم على هذا الاختبال العلمى. بل لقد نسى هؤلاء المخابيل أن الأمويين لا يمكنهم أن يخلقوا من العدم شخصية نبوية جليلة ومقدسة يقال فى سيرتها إن زعيم الأمويين ظل يعارضها ويرفض الوحدانية التى أتت بها مفضلا عليها الوثنية المتخلفة، وإن أمره انتهى إلى الهزيمة المذلة يوم الفتح والدخول فى الدين الذى كان ينكر صحته قبلا والانضواء تحت لواء عدوه اللدود محمد بن عبد الله، وإن معاوية كان كاتبا له، ولما وجدنا من يسمون بـ"العباسيين" يناهضون الأمويين وينكلون بهم ويختلعون الحكم منهم بعد حروب طاحنة، أو من يسمون بـ"الفاطميين" يعملون على إقامة دولة ينتسب أصحابها إلى فاطمة التى ليس لها وجود حقيقى، بل لما كان هناك سنة وشيعة استمرا واستمر الخلاف والنزاع السياسى والعقيدى بينهما حتى اليوم. ولقد قام بعض المستشرقين المخضرمين ونددوا بهذا الشطط الفكرى رغم أنهم هم أنفسهم يعادون محمدا ودينه، ولكنهم كانوا على بقية من الحياء العلمى فخجلوا أن يعوموا على عَوْم هذين المستشرقين الصغيرين. وبعد ذلك بعقدين ونصف تقريبا وقعت يدى على مقال كتبه فرنسى يتلاعب بالمنطق مستظرفا ومشبها بطريقة بهلوانية مضحكة وضع النبى محمد بوضع شارلوك هولمز، وكما أن شارلوك هولمز شخصية قصصية خيالية لا حقيقة لها

فكذلك فشخصية النبى محمد عليه الصلاة والسلام شخصية مخترعة لا أصل لها مثل شارلوك هولمز بالضبط. وقد رددت على ذلك المجنون الرسمى فى وقتها. ومنذ نحو عقدين هاج العالم الغربى متهما عميله السابق الرئيس العراقى صدام حسين، بعد أن ورطوه فى حرب مع إيران وفى اقتحام الكويت لاستنزاف طاقات العراق وإيران والكويت المالية والحربية، بأنه يهدد أمن العالم بما يملك تحت يده من أسلحة دمار شامل مع أن قدراته العسكرية لا تمكنه من ضرب معسكر للقطط، ثم هجموا عليه ودمروا العراق وأسلموا البلاد إلى الفوضى والتناحر ووضعوا أساس تمزيقها وفوق ذلك أعدموه. ورافأ الغربَ على ذلك كثيرٌ من حكام العرب أنفسهم. والعجيب أن صدام حسين كان من رجال الغرب المقربين قبل ذلك بقليل، وكان عند العرب بطلا صنديدا يحرس بوابتهم الشرقية فى وجه إيران.

تفسير القرآن فى كتاب "التيجان"

على أن فى كتاب "التيجان" كثيرا من تفسير آيات القرآن فى سياقات منه مختلفة بغض النظر عن مدى استقامة هذا التفسير أو التوائه نحو الخرافة كما فى كلامه عن آدم وحواء وقابيل وهابيل، أو بلقيس ملكة سبإ على سبيل التمثيل. ففى المثال الأول نقرأ: "قال أبو محمد عن أنس عن أبى إدريس عن وهب قال: حبلت حواء، وآدم بمكة يبتنى، فولدت شيثًا وعناقًا فى كل بطن غلامًا وجارية، وكانت حواء تحمل فى كل عام فتلد فى كل بطن غلامًا وجارية، فنزل جبريل على آدم فأمره أن يزوج الغلام من البطن الأول الجارية من البطن الآخر، ويزوج أيضًا الغلام من البطن الآخر الجارية من البطن الأول. ثم أمر الله تعالى آدم بالسير إلى البلد المقدس، فأراه جبريل كيف يبنى بيت المقدس، فبنى بيت المقدس ونسك فيه وقِبْلَتُه منه المسجد الحرام ويحج إليه وقت الحج، ويحج معه ولده، فكان آدم وولده يبنون البيت ويقربون القربان فى جبل الطور: فمن قُبِل سعيه نزلت النار من السماء على قربانه فأكلته، فمن أُكِل قربانه علم أنه قُبِل سعيه، ومن لم تأكل النار قربانه علم أنه لم يُتَقَبّل سعيه فتفكر فى ذنبه وسأل آدم أن يستغفر الله له من ذنبه ثم يقرب قربانًا آخر حتى إذا أكلت النار قربانه علم أن سعيه مقبول، وقد تاب الله عليه.

قال وهب: وأنه لما أتى وقت الحج نزل جبريل على آدم فقال: السلام يقرئك السلام يا أبا محمد ويقول لك: أنا الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، حكمت عليك بالموت وعلى زوجك وعلى ولدك إلى يوم الدين ولا يبقى معى لا نبى مرسل ولا ملك مقرب ولا جن ولا شيطان. كل يذوق الموت. فأتى آدم حواء وهو باكٍ. قالت له: ما لَك؟ قال لها: حكم ربى على بالموت وعليك وعلى جميع الخلق من الجن والإنس والملائكة. فبكت حواء لفراق الدنيا. قال لها آدم: الدار الآخرة خير للمتقين. ثم سار

آدم إلى الحج. وإن هابيل وقابيل قربا قربانا تُقُبِّل من هابيل ولم يُتَقَبَّل قربان قابيل: "إنما يتقبّل الله من المتقين *لإَ نْ بسطتَ إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسطٍ يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين".

قال وهب: قال ابن عباس: كانت منافستهما على أخت قابيل التى وُلِدَتْ معه فى بطن، وكانت جميلة، فطلب هابيل أن يتزوجها، وقال له قابيل: أنا أتزوجها. فقال له هابيل: لا تحلّ لك. قال له قابيل: أقرّب معك قربانا، فمن أكلت النار قربانه تزوجها. فقرّبا، فأكلت النار قربان هابيل، فبقى قربان قابيل، فحسد هابيل عليها ونفز عليه فقتله. قال وهب: فلما رآه ميتًا حين قتله أقبل عليه يدعو وينادى: يا هابيل، يا هابيل. فلما لم يجبه أقبل عليه يقلبه ليتحرك، فلما رآه ميتًا لا يتحرك ولا يحير جوابًا ولا ينظر ندم وأدركه الخوف وعلم أنه الموت، وداخلته وحشة الموت وعلم أنه عصى الله، فطلب الحيلة له فلم يدر ما يفعل فيه، وضاقت عليه الأرض، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فلما مات بحث الغرابُ الحى حتى خَدّ فى الأرض أخدودًا ثم جر إليه الغرابَ القتيل فألقاه فى الأخدود، فقال: هذا غرابٌ عَلِمَ ما يعمل بأخيه. فما لى لا أوارى سوأة أخى هكذا؟ فلما حفر ليواريه أتت حواء لتطلبهما لما غابا عنها فوجدته قد حفر له قبرا ووجدت هابيل قتيلاً ، فحملته وسارت به إلى آدم وقالت له: يا آدم، هذا هابيل أكلمه فلا يكلمنى ولا ينظر ولا يتحرك. قال: ما بالُه؟ قال له قابيل: أنا فعلت به هذا. قال آدم: اذهب عنى، فقد عصيتَ الله. إياك أن تلقانى. فذهب فلم يلقَ آدم بعدها. وقال آدم لحواء: هذا الموت الذى أعلمتك به تزوّدى منه، فإنك لن تَرَيْه إلى يوم الدين. يرجع إلى الأرض التى خُلِقْنا منها. فلما أيقنت بفراقه وأنها لا تراه أبد الأبد عظمت عليها المصيبة ورفعت يديها إلى رأسها وصاحت...".

أما فى المثال الثانى الخاص ببلقيس فها هو ذا جزء مما يهمنا: "فلما أتت الهدية إلى سليمان نسب لهم الخيل بعضها عن بعض وميز الغلمان عن الجوارى فى لباسهم وأخبرهم بما فى الحُقّ من عدد الياقوت والجوهر والزبرجد والزمرد ووزن العِقْيَان واللّجَيْن. فأجابه الرسل وصدقوه إلى ما دعاهم إليه من طاعة الله، ثم دعا عفريتًا من الجن يأتى بعرشها، وكان عرشها ذهبًا صامتًا مرصعًا بالدر والياقوت عشرين فى عشرين ذراعًا، وتاجها كالعقنقل معلق إلى رهو المجلس بالسلاسل، فقال العفريت: "أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لَقَوِى أمين". قال آصف بن برخيا كاتب سليمان، وقد كتب الوحى الذى أمر الله به سليمان: "أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طَرْفُك". فأمر سليمانُ الريحَ فأقلَّتْ آصف أسرع من طرفة عين، فأتى إلى العرش وهو فى قصر غمدان، ودونه عشرة حُجُب بالمجالس فى كل مجلس حرس، فأمر آصفُ الريحَ، فأقلته، وأمسك آصف صدر العرش فأتى به سليمان، وكان سليمان لا يحتجب عن آصف عند نسائه، فأتاه بالعرش، وأمر سليمانُ الجنّ والإنسَ، فبنَوْا له مجالس لم يُبْنَ مثلها، فجعل العرش فى أقصى المجلس. ولما رأى سليمان العرش من ذهب ولؤلؤ وجوهر قال: "نَكِّروا لها عرشها ننظرْ أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون".

قال ابن عباس: زِيدَ فيه جوهر وياقوت ونُقِصَ منه. وقال ابن عباس: للقرآن ظاهر وباطن: فعندى لظاهره تبيان، ولباطنه علم يهتدى به إليه من اعتصم بالله. وإن وفد بلقيس الذين أوفدتْ إلى سليمان أتَوْها فأعلموها بما رأَوْا وبإيمانهم. فأمرت بالجهاز وسارت فى مائة رجل وعشرين رجلاً من أشراف قومها ورؤسائها وأخيارها مع كل رجل من وجوه جنده وأفاضل أصحابه وقادة خيله مائة رجل، ثم جمعت أبناء الملوك ثم قالت: معاشر حمير، أنتم تلاد الله اصطفاكم من أول الدهور وفضلكم بأفضل الأمور، وقد ابتلاكم بهذا

النبى سليمان بن داود، فإن آمنتم وشكرتم زادكم نِعَمَه، وإن كفرتم سلبكم النعم وسلط عليكم النقم. فقالوا لها: الأمر إليكِ. وعلموا أنها شفيقة عليهم ناصحة لهم، فخرجت إلى سليمان فى مائة ألف واثنى عشر ألفًا وتركت جميع أجنادها بغمدان وبمأرب، فتركها ثلاثة أيام، فقال لها قومها: ما فى أمر هذا الرجل؟ أتريدين الدخول فى طاعته أم تحاربينه أم تقولين إنه نبى؟ قالت لهم: سأعلمكم منه ما تعرفون أنبى هو أم ملك من هؤلاء الملوك. انظروا إلى إذا أنا دخلت عليه: فإن هو أمرنى بالجلوس فهو ملك من هذه الملوك لأن الملوك لا يُجْلَس عندهم إلا بإذنهم، وما أقل من يجلس عندهم إلا خاصتهم. وإن هو لم يأمرنى ولم ينهنى فهو نبى. وإنى أساله عن أشياء إن هو أخبرنى عنها فهو نبى، وأنا داخلة فى أمره ولا طاقة لكم بمحاربته. قال: فأمر سليمان الجن فجعلوا له عن يمينه وشماله حائطين مموهين بالذهب وبنوا من وراء ذلك دارًا ومجلسًا وجعلوا أرض الدار لَبِنًا مموهًا بالذهب غير موضع لَبِنَة واحدة، ثم أذن لها بالدخول، فلما رأت الحائطين ودخلت الدار فرأت أرضها وحيطانها من ذهب تقاصر إليها ملكها ورأت شيئًا لا يشبه ما كانت فيه، وسليمان فى مجلسه فى أقصى الدار، ومعها لبنة من ذهب فى يدها تريد إن أُمِرَتْ بالجلوس أن تجلس عليها، فنظرت فإذا هى على باب مجلس سليمان من خارج بموضع لبنة من فرش الدار ليس فيها لبنة فكرهت حين رأت ذلك أن تمضى بما فى يدها بها فرمت باللبنة فى الموضع الخالى، ونظر سليمان، فلما دخلت عليه وسلمت وحيته تحية الملوك وتواضعت له كما يُتَوَاضَع للملوك تمتحنه بذلك قال لها سليمان: أهكذا عرشك؟ قالت له: كأنه هو. ثم قامت بين يديه فلا يأمرها ولا ينهاها عن القيام حتى إذا طال ذلك منها قال سليمان ورفع رأسه إليها: الأرض لله. فمن شاء فليجلس، ومن شاء فليقم. قالت: الآن علمت أنك نبى، قال: ومن أين؟ قالت: إنه لا يُجْلَس عند الملوك إلا بإذنهم، وأما القيام فعندهم يقام، وما

أقل من يقعد عندهم إلا من كان من خاصتهم، لكنك قلت مقالة أهل العلم بالله. وقد أتيتك وأنا أريد أن أسألك عن ثلاث خصال: فإن أنت أخبرتنى بهنّ دخلتُ فى طاعتك، وإن لم تفعل فعلت رأيي فيما بيني وبينك. قال سليمان: فَسَلِى ولا قوة إلا بالله. قالت: أخبِرْنى عن ماءٍ روىّ ليس من أرض ولا سماء، وأخبرنى عن شبه الولد أباه وأمه ومن أين يأتيه ذلك، وأخبرنى عن لون الرب تبارك وتعالى. سألتْه عن ذلك وهى جالسة مما يليه على كرسى، والإنس والجن عن يمينه وشِماله. فقال سليمان للإنس: هل عندكم فى هذا شيء؟ قالوا: يا نبى الله، لا علم لنا. قال للجن: هل عندكم فى هذا شيء؟ قالوا: لا علم لنا يا نبى الله. ثم قال سليمان للجن: اركبوا هذه الخيل فأَجْرُوها، فإذا تصبب عَرَقُها فخذوه وجيئونى به. ففعلوا وأتوه بماء كثير من عرق الخيل، فقال لها: هاك يا بلقيس ماءً ما روى من أرض ولا سماء. قالت: أجبت عن هذه، فماذا تقول فى الخصلتين؟ قال لها: أما شبه الولد فإن النطفة إذا سبقت من الرجل كان الشبه له، وإن سبقت من المرأة كان الشبه لها. قالت: صدقت. قالت: فالخصلة الثالثة؟ قال لها: أسأله تبارك وتعالى عن سؤالك وأنا راغب إلى ربى. فرغب سليمان إلى ربه فى مجلسه ذلك، فأوحى الله إليه: إنى قد أنسيتها ذلك، فاسألها عنه. فسألها، فقالت: ما أدرى ما سألتك عنه يا نبى الله. فعرض عليها سليمان الإسلام. فقالت: أنظر فى أمرى هذا يومى هذا، فقالت الجن: كنا نصيب فى سليمان رحمة النبوة، فيسأل عما نريد، فإذا هو تزوج بلقيس أتتنا فطنة الجن وحيل الإنس وكيد النساء، فلم نصب راحة. فكيف إذا اجتمعت مع أعوانها من الجن والإنس أهل القسوة والتطاول على من دونهم؟ لم نأمن على أنفسنا الهلكة. يحجب عنا كل خير، وينزل بنا كل سوء وشر. تعالوا فلْنُزَهِّدْه فيها، فإنه قد ذكر أنه يريد يتزوجها. فقال لهم عفريت من الجن يقال له: "زَوْبَعَة": أنا أكفيكم سليمان. فأتاه فقال له: يا نبى الله، بلغنى

أنك تريد تتزوج بلقيس، وأمها من الجن، ولم تلد جنية من أنثى قط ولدًا إلا كانت رجلاه مثل حافر الحمار. قال سليمان: فكيف لى أن أنظر إلى ذلك منها وأعلم من غير أن تعلم ما أريده منها؟ قال له زوبعة: أنا أكفيك ذلك. فصنع زوبعة لسليمان مجلسًا من قوارير وجعل أرض المجلس لجة وسرّح فيها السمك، ثم جعل فوق ذلك صرحًا ممرّدًا من قوارير، ثم قال له: أرسل إليها، فلْتدخل عليك، فإنك ترى الذى تريد. فبعث إليها وهو على كرسيه فى البيت فى مجلس غيره، فلما رأت الماء والسمك تجول ضربت ببصرها لتنظر مكانًا تجلس فيه فلم تجد، وحسبتْه لجة، فكشفت عن ساقيها لتخوض الماء، فلما رآها سليمان ونظر إلى ساقيها عليهما شعر كثير أسود على بياض ساقيها قال لها سليمان: لا تكشفى عن ساقيك. إنه صرح ممرد من قوارير. فنظرت فإذا ملكها ليس هو شيء عند ملك سليمان وأيقنت أنها آية من عند الله ليس من تملّك المخلوقين فقالت: يا نبى الله، ظهر الحق وذهب الباطل. ثم قالت: "رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين". فلما نظر سليمان إلى شعر ساقيها ورأى جسمها أحسن جسم صرف وجهه عن ساقيها للشعر الذى رأى، فعلمت بلقيس إنه إنما صرف بصره ووجه للشعر الذى رأى. قالت: يا نبى الله، إن الرمانة لا يُدْرَى ما هى حتى تُذَاق. قال سليمان: ما لا يحلو على العين لا يحلو على الفم. ثم تَلَوّمَ سليمانُ أَمْرَه فى بلقيس شهرًا حتى أنزل الله عليه براءتها من ريب الجاهلية، فلما عزم سليمان على تزوجها قال له رجل صالح من الجن كان يحب ما وافق سليمان: يا نبى الله، هل كرهت منها إلا الشعر؟ قال: بلى، قال: إنى سأتركها لك مثل الفضة من غير عيب، قال له: افعل. فصنع لها النُّورَة وبعث بها إليها واتخذ لها الحمام. قال بعض أهل العلم: كانت أول نُورَةٍ عملها مخلوق وأول حمام صنع ذلك الجنى، وصنع لها ذلك الجنى صرحين ممردين وضروب الصناعات. وتزوجها سليمان

فأعجب بها وبعقلها وتدبيرها بحسن رأيها، فولدت له داوود ورحبعم: فأما داوود فمات فى حياة سليمان أبيه، وبقى رحبعم بعد سليمان وسرح بلقيس على ملكها، ونزلت بمأرب، فكان يأتيها سليمان فى كل شهر مرة فيقيم عندها سبعًا ثم يسير فى الأرض، وكان يعينها بالشياطين يعملون لها. فعامة صناعات أهل اليمن من قِبَل الشياطين، وافترقت عنهم فى الناس شرقًا وغربًا. وإن سليمان أمر الريح، فسارت به إلى الأحقاف ليزور قبر هود النبى صلى الله عليه وسلم، فسار حتى نزل فى الأحقاف ودخل إلى قبر هود ورآه ثم انصرف ومر على البحر حتى بلغ عدن...".

سمات الأسلوب فى كتاب "التيجان"

وفى نهاية التعريف بهذا الكتاب الهام والقيام بجولة داخل صفحاته وتحليل موضوعاته الرئيسية نحب أن نختم بكلمة عن أسلوبه. والأسلوب فى كتاب "التيجان" كما هو فى أيدينا الآن، سواء وصلَنا حسبما كتبه ابن منبه بالضبط أو تدخل ابن هشام فى صياغته قليلا أو كثيرا، هو أسلوب سهل بسيط لا مشكلة فيه البتة، بل إنى أحيانا لأشعر أنه بحاجة إلى شىء من التدخل لإحكام العبارة. ويرانى القارئ قد احترزت فأعلنت أنى إنما أتكلم عن أسلوب الكتاب الذى فى يدى سواء تدخل فيه ابن هشام بالإضافة أو بالتعديل أو لا. والسر فى ذلك أنى أحيانا ما أجد باحثا يعزو الكتاب إلى ابن هشام، فكأنه ليس راوية له بل مؤلفا، علاوة على أننا نقرأ بين الحين والحين عبارة توحى أن ابن هشام ليس راويا للكتاب بل مشتركا فى تأليفه مثل العبارة التالية، وهى موجودة فى بداية الحديث عن مُلْك مالك بن عمرو بن يعفر: "قال أبو محمد بن عبد الملك بن هشام: ثم قام الغلام الذى سماه الهدهاد بن شرحبيل للملك، وهو مالك بن عمرو بن يعفر بن عمرو بن حمير بن السياب بن عمرو بن زيد بن يعفر بن سكسك المقعقع بن وائل بن حمير بن سبإ، خطيبًا فقال: يا بنى حمير، نطق الدهر وخرستم، وانتبه الذل ونمتم، أما ترون الجبابرة تجاهلت، وكل يد تطاولت؟ سفهت الأحلام وانتبه العوام... إلخ". فعبارة "قال أبو محمد بن عبد الملك بن هشام: ..."، ومثلها أحيانا "قال أبو محمد" فقط، وذلك كثير فى الكتاب، يفهم منها أنه هو صاحب الكلام التالى لتلك العبارة لا مجرد راو فى سلسلة رواة الكتاب. كما قد تثير هذه العبارة وأمثالها فى مواضع مختلفة من الكتاب أنه لم يكن مكتوبا بل ينتقل من جيل إلى جيل ومن شخص إلى شخص سماعا، وهو ما لا يمكن أن يكون. فالكتاب ينسب إلى ابن منبه، وليس هناك كتاب يعتمد فى بقائه وانتقاله عموما

على الحفظ فى الصدور فى عالمنا الإسلامى سوى القرآن الكريم، زيادة على أن كتاب "التيجان" ليس عدة فقرات فتحفظ بسهولة بل يقع فى عدة مئات من الصفحات، ويحتوى من أسماء الملوك ومشاهير العرب وغيرهم على ما يدير الرأس ويدوّخ العقل. وحتى لو أن ابن منبه كان يملى فى مجلسه هذا الكلام فلا بد أن هناك من كانوا يقيدون فى صحفهم ما يقول كما هو الحال مثلا فى "تفسير الطبرى"، الذى ينص فى كل مرة على أن المتكلم هو ابن جرير نفسه. فما معنى عبارة "قال أبو محمد (بن عبد الملك بن هشام)" إذن؟ لهذا قلت إنى سوف أدرس هنا أسلوب الكتاب المسمى بـ"التيجان" كما هو فى أيدينا. وفى مواضع كثيرة من الكتاب نلفى عبارة "قال وهب منبه" متكررة فى ثنايا الحكايات والأخبار العادية. فهل قال ابن منبه من الكتاب الذى فى أيدينا أشياء، وأضاف إليه ابن هشام أشياء مثلما صنع فى السيرة النبوية التى كتبها ابن إسحاق ثم جاء هو فأضاف وحذف وفسر وعلق؟ بل لقد وجدت فى موضع من الكتاب العبارة التالية التى تقلب الوضع فتجعل وهب بن منبه يروى عن ابن هشام، وذلك فى بداية "قصة المغارة التى فيها شداد بن عاد والصعاليك الثلاثة حين دخلوها وما جرى عليهم": "قال وهب: قال أبو محمد عبد الملك بن هشام: حدثنا زياد بن عبد الملك البكائى عن محمد بن إسحاق المطلبى عن عبيد بن شرية الجرهمى قال:..."، وإن لم ألاحظها فى الكتاب سوى مرة يتيمة.

ولننظر الآن فى هذا النص، وهو عن الهدهاد أحد ملوك اليمن وحديثه إلى أُولِى الأمر فى دولته يرشح لهم بعد موته بلقيس لتكون ملكة عليهم: "فأقام الهدهاد فى المُلْك عشرين سنة. فلما حضرته الوفاة أحضر جميع وجوه حمير وأبناء ملوكهم وأهل المشورة من بنى قحطان فقال: يا بنى قحطان، أَمَا إنكم تعلمون فضل رأى بلقيس على، فإنها لا

تخطئ ما تشير به عليكم. كيف تجدون بركة رأيها؟ قالوا: نعم. قال: وإنها أعقل النساء والرجال. قالوا: نعم قال: فإنى أستخلفها عليكم. فقال له رجل منهم: أيها الملك، تدع أفاضل قومك وأهل ملتك وتستخلف علينا امرأة وإن كانت بالمكان الذى هى منك ومنا؟ قال: يا معاشر حمير، إنى رأيت الرجال وعَجَمْتُ أهل الفضل وسَبَرْتُهم وشهدتُ من أدركتُ من ملوكها، فلا والذى أحلف به ما رأيت مثل بلقيس رأيًا وعلمًا وحِلْمًا مع أن أمها من الجن. وإنى أرجو أن تظهر لكم عامة أمور الجن مما تنتفعون به وعَقِبُكم ما كانت الدنيا، فاقبلوا رأيى، فإنها مع اختيارى فيها مؤدِّبة لغيرها من أهل بيتها. وانى كنت سميت المُلْك لمالك بن عمرو بن يعفر بن حمير بن عمى، وهو غلام له حزم وعقل، فإذا بلغ فله الملك: إما فى حياتها وإما بعد موتها. قالوا: سمعنا وأطعنا أيها الملك. انظر لنا. فمات الهدهاد بن شرحبيل ووَلِى المُلْكَ بلقيسُ".

والسؤال هو: هل تجد أيها القارئ الكريم فى ذلك النص أى غموض سواء من جهة ألفاظه أو من جهة تراكيبه وعباراته؟ والجواب هو لا. إنك تقرأ وكأن المؤلف كان يتكلم لا يكتب، فهو يستعمل لغة كلغة الحياة اليومية، وكل ما هنالك أنها لغة معربة ليس إلا. قد يقول قائل: إن فى هذا النص مثلا كلمتين لا أظن طلاب هذه الأيام يفهمونهما، وهما "عَجَمْتُ وسَبَرْتُ". والجواب هو أن أبناءنا طلاب هذه الأيام ليسوا مقياسا يعتمد عليه، فلهم ظروف خاصة فى تلقى العلم فى المراحل التى تسبق الجامعة لا تؤهلهم لمستوى عال، وهم من جهتهم لا يحبون القراءة أصلا إلا ندرة نادرة. ولكنهما لا يَصْعُبان على أى شخص عنده قدر من الثقافة يجعله يهتم بكتاب ككتاب "التيجان". وعلى كل حال فمن السهل على القارئ أن يخمن معنى اللفظتين من السياق، وهو أن الملك الهدهاد قد اختبر (أو امتحن، أو أراد أن يتعرف إلى) قدرات الأشخاص المذكورين. كذلك فأسلوب

"التيجان" يخلو فى الأجزاء السردية من الأخبار من المحسنات البديعية بما فى ذلك السجع، وهو أخف تلك الألوان وأولها ذكرا لدن الحديث عن تلك المحسنات. أما فى الأجزاء الحوارية فيقابلنا السجع فى بعض الأحيان كما فى كلام القلمّس أفعى نجران لرحبعام بن سليمان عليه السلام: "فاجعل سيفك دليلاً ، وعزمك خليلاً ".

ومن سمات أسلوب "التيجان" استعمال الاسم الظاهر كثيرا فى الإحالة إلى نفسه بدلا من الضمير كما فى النصوص التالية: "لما غوى (آدم) وأمره الله بالخروج من الجنة أخذ جوهرة من الجنة يمسح دموعه بتلك الجوهرة حتى اسودت من دموع الخطيئة"، إذ كان المنتظر أن يقول عوضا عن ذلك: "لما غوى (آدم) وأمره الله بالخروج من الجنة أخذ جوهرة من الجنة يمسح دموعه بها حتى اسودت من دموع الخطيئة"، "فلما رآه ميتًا لا يتحرك ولا يحير جوابًا ولا ينظر نَدِمَ وأدركه الخوف وعلم أنه الموت، وداخلته وحشة الموت"، عوضا عن أن يقول: "وداخلته وحشته"، "وتغلبوا على جميع من كان معهم من الألسن حتى زُهُوا على الناس وأظهروا فيهم الطغيان وأشرفوا على الناس" بدل قوله: "زهوا على الناس... وأشرفوا عليهم"، "فخرج من عادٍ ثلاثةُ آلافٍ وفدًا إلى هود، فأتَوْا هودًا فقالوا له: ..." عوضا عن "فخرج... ثلاثة آلاف... إلى هودٍ، فأَتَوْه فقالوا له: ..."، "فاشتدت الريح وصرصرت لتمام سبع ليال وثمانية أيام فعصفت الريح وصرصرت فلم تدع منهم أحدًا" عوضا عن أن يقول: "فاشتدت الريح وصرصرت لتمام سبع ليال وثمانية أيام، فعصفت وصرصرت فلم تدع منهم أحدًا" بحذف كلمة "الريح" الثانية والاكتفاء بالضمير المقدر العائد عليها فى الفعل: "عصفتْ "، "استطابوا الشعر وخف على ألسنتهم وراموا قوله، فنسج لهم قوله" بدل "فاستطابوا الشعر وخف على ألسنتهم وراموا قوله، فنسج لهم" اكتفاءً بالضمير المقدر فى"نسج"، "خرجنا أنا وأبى إلى صحراء عدن، وكان

جدى ساكنًا بعدن، فدفن ملاً فى صحراء عدن، وأوصى أبى إن احتاج أن يأتى موضع كذا من صحراء عدن"، وكان يمكن أن يكتفى بذكر "عدن" أول مرة ويستخدم لها بعد ذلك الضمير بدلا من تكريرها هى نفسها أربع مرات فى هذا النص القصير، "فلما رآها سليمان ونظر إلى ساقيها عليهما شعر كثير أسود على بياض ساقيها قال لها سليمان:..." بدلا من أن يقول: "فلما رآها سليمان... قال لها:..." اكتفاء بالضمير فى "قال" عن تكرير كلمة "سليمان"، "وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه". بدل "وكانت باليمن فيما يزعم أهلها نار..."، "فأراد الله أن يريهم قدرته فأرسل الله سليمان بن داود" عوضا عن قوله ببساطة: "فأراد الله أن يريهم قدرته فأرسل سليمانَ بن داود"، "فحملوه ورجعوا به قافلين إلى اليمن، وافترق مُلْك اليمن على ملوك شتى" بدلا من "فحملوه ورجعوا به قافلين إلى اليمن، وافترق ملكها (أو ملك ذلك البلد) على ملوك شتى".

ومن سمات ذلك الأسلوب أيضا كثرة الشِّعْر على ألسنة أبطال الأخبار والحكايات الموجودة فى الكتاب. وهاك شاهدا فى النص التالى على ما نقول. فتحت عنوان "ملك السكسك بن وائل" يكتب صاحب "التيجان": "كان السكسك حازمًا جلدًا، وكان إذا غلب على من ناوأه هدم بناءه وغير آثاره بالنار. وهو أول من حرق بالنار وخرب المدن فسمى: مقعقع العَمَد. وإن سكسكًا زاحَفَ قضاعةَ بن مالك فغلب عليه، وصار إليه مُلْكُه، فجمع المُلْك. فلما اجتمع لسكسك المُلْكُ كله باليمن أنشأ يقول:

سأركب قطعًا للقرين وإنْ أبى ... لى العزم فى هذا الشقيقُ المجربُ
وأقطع حبل الوصل بالسيف كارهًا ... وأركب أمرًا للردى ليس يُرْكَب
أألبس ثوب الذل والموت دونه ... أمَ اقْطَعُ قومًا قُرْبُهم لى مشغب؟

عـصيت بـه قـول النـصيح، وإنّ مـا ألاقى لفقـد الملـك مـن ذاك أعجـب

سألقى المنايا السود بـالبيض ضـحوةً وأقرعُ وجه الـدهر، والـدهرُ مغضَبُ

وأبـذل نفـسى للمكـاره طائعًـا إذا ما جبان القـوم بالـسيف يغـصب

إذا الموت عند الجمع كالصاب طعمُه يطيـب لهـا عنـد الهيـاج ويعـذب

إذا البِـيضُ مـن قـانى الـدماء كأنهـا عليهـا خطـوط الحميريـة تُكْتَـب

قال وهب: فغلب على الشام، فلقيه عمرو بن امرئ القيس بن بابليون بن سبأ من أرض مصر بالرملة بهدية، فقبل منه هداياه وأقره على مصر والمغرب ورجع إلى غزو أرض بابل يريد نمرود بن ماش، فلما نزل بجِنْو قراقر من أرض العراق اعتلّ فمات، فحملوه ورجعوا به قافلين إلى اليمن، وافترق ملك اليمن على ملوك شتى، وولى ابنه يعفر بن السكسك بعده فى مكانه، وافترق أمر اليمن للذى أراد الله".

ومن السمات الأسلوبية فى الكتاب كذلك أن المؤلف إذا ما مر به اسم علم عند أهل الكتاب وقف أمامه وفسره ككتلة واحدة ثم عاد فقسمه جزأين وشرح معنى كل جزء منهما. وهذا مثال على ذلك، وهو متاح فى ترجمته لبلقيس وحديثه عن حكمها لليمن: "فلبس القَلَمّس المِسْحَ. وكان أول من لبس المسحَ يعقوبُ النبى تواضعًا لله، وحرّم الشحوم على نفسه. ويعقوب هو إسرائيل: ولى الله باللسان السريانى. ومعنى إسرا: ولى، وإيل: الله. وجبرائيل: رسول الله. جبرا: رسول، وإيل: الله. وعزرائيل: عبد الله. عزرا: عبد، وإيل: الله. وميكائيل: صَفِى الله. ميكا: صَفِى، وإيل: الله. فسار الملك القلمّس بن عمرو الحميرى حتى دخل عساكر سليمان...". وبالمناسبة فمعنى "قلمس" فى الأصل هو البحر الزاخر أو السيد العظيم.

كذلك كثيرا ما نجد مؤلف الكتاب، عند ذكره اسم نبى أو ملك مثلا، يُلْحِق به سلسلة نسبه حتى يبلغ به آخر جَدٍّ يستطيع الوصول إليه كما فى حديثه عن سليمان عليه السلام فى تضاعيف ترجمته لبلقيس، إذ قال: "لما بلغ مُلْكُ حمير مبلغًا لم يبلغه أحد من أهل الدنيا عظمت نفوسهم وتكبروا وتجبروا، ولله الكبرياء والجبروت، فأراد الله أن يريهم قدرته فأرسل الله سليمان بن داود بن إيشا بن حصرون بن عموم بن ناهب بن لاوى بن يهوذا بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم، وأعطاه الله ملكًا لم يعطه أحدًا من قبله ولا ينبغى لأحد من بعده، فأتى إلى حمير بالآيات التى لا يستطيع مخلوق أن يأتى بها...". وهذا مثال آخر عند حديثه عن انتقال الملك من الحارث الرائش إلى ابن الصعب: "ووَلِى بعده ابنه الصعب ذو القرنين بن الحارث الرائش ذى مراثد بن عمرو الهمال ذى مناح بن عاد ذى شدد بن عامر بن الملطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام".

وقد تكرر فى بعض حوارات الكتاب ورود بعض الأسئلة عاريةً عن "هل" وكأنها جمل خبرية، مثل "فقال الهميسع: نمضى فى هذا الكهف أم لا؟ فقال له: نعم"، "فقال للرسل: كل هذا فى أرضكم؟ قالوا: نعم أيها الملك"، "قال له الصعب: ولله نبى على الأرض؟ قال له الشيخ: نعم أيها الملك"، "قال: إياد ابن نزار؟ قلت: نعم من أنبأك باسمى؟"، "قال: ابن أختنا؟ قال: نعم أصلح الله الملك"، "قال معاوية: هؤلاء أجمعُ وَلَدُ سام بن نوح؟ قال عبيد: نعم لم يرحل معهم سواهم"، "قال معاوية: فنزلوا جميعًا أم شتاتًا؟ قال: كل ذلك يا أمير المؤمنين".

ومما لاحظته أيضا مجىء "إنّ/ أنّ" وبعدها جملة فعلية مصدرة بحرف جر أو ظرف فى مثالين هما: "فزعم أهل العلم أنّ فيهم أنزل الله: وكم قَصَمْنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قومًا آخرين..."، "قال أسد بن موسى عن أبى إدريس إنّ فى خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان فُتِحَتْ مغارة فى اليمن، فأصابوا فيها جوهرًا كثيرًا وذهبًا وسلاحًا". وقد كنتُ حتى عُيِّنْتُ معيدا أستغرب ذلك، ثم وقعت على عدد من النصوص فى الكتب القديمة يستعمل فيها هذا التركيب. ويمكن أن يقال فى توجيهه إن ثم ضمير شأن مقدرا بين "إن/ أن" والجملة الفعلية التالية لها.

ولاحظت فى الكتاب أيضا تكرر "بين" رغم توسطها اسمين ظاهرين، وهذا مما يتنطس فيه المتنطسون، وهو كثير فى النصوص القديمة لكبار الشعراء والكتاب: "بين يأجوج ومأجوج وبين الناس"، "فكان بين حصنه علعال وبين قبر النبى هود صلى الله عليه وسلم مسيرة يوم"، "كان بين منزل شريف وبين المدينة عشرة أميال"، "ألقى بين أخت سالم وبين زوجها التشاجر"، "وهم يدعون أصنامهم أن تحول بين صالح وبين ذلك". ليس ذلك فحسب بل هناك التركيب التالى الذى تحل فيه كلمة "إلى" بدلا من "بين" الثانية. وقد وقعت عليه يدى مرتين: "ولَيَمْلِكنّ ما بين أَبْيَن إلى جرش"، "وكانت مراعيهم ما بين حِسْمَى إلى وادى القُرَى".

ويكثر فى الكتاب استعمال "ثم إن" فى موضع "ثم"، وكأن الكاتب يريد أن يقول: "فلنطو هذا الجزء من حكايتنا، ولندخل فى موضوع آخر". ولا يحتاج الأمر إلى تمثيل له، فهو كثير فى الكتاب.

مع نص من كتاب "التيجان"

والآن مع هذا النص الهام من الكتاب نختم به هذه الدراسة، وموضوعه أحد موضوعات العقيدة الإسلامية، وهو عن الجنة الأولى التى أُهْبِط منها آدم وحواء وحقيقتها ومكانها، ويجده القارئ فى الصفحات الأولى من الكتاب: "قال الذى ألف هذا الكتاب: إن أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم اختلفت فى الجنة التى أُهْبِط منها آدم عليه السلام: فقالت فرقة إن الجنة التى خرج منها آدم هى جنة من جنات الدنيا، وليست جنة الخلد التى وعد الله المتقين، وكذلك النار التى أَوْعَدَ الكافرين، ولم يُخْلَقا، وإنما يُخْلَقان غدًا يوم الفصل. واحتجوا فى ذلك وقالوا أقاويل، فكان ما احتجوا به أن قالوا: قال تعالى: "كلُّ شىء هالك إلا وجهه". فإن كانتا خلقتا فهما يهلكان بهلاك الدنيا وما فيها. وقالوا: قوله: "إلا وجهه" ما أراد إلا هو كما تقول: هذا وجه الأمر، وهذا وجه الحق. أرادوا بـ"وجه" هنا الأمر، وأما "الأمر" فما له وجه ولا قفا. وهذا هو الحق، وكذلك قوله: لا وجهه إلا هو.

ومما احتجوا به أيضًا أن قالوا: إنما سميت الدنيا لأنها دنت بجميع ما فيها من خلق الله من كل شىء مخلوق، وسميت الآخرة: "آخرة" لأنها تأخرت بعد الدنيا بجميع ما فيها. فهذه الدنيا بما فيها، وتلك الآخرة بما فيها، وليس فى الآخرة إلا داران: جنة ونار. فإن كانتا خُلِقَتا فقد خُلِقَت الآخرة فى الدنيا، فحينئذ يكونان "دنيا" جميعهما وانتفت الآخرة، وذلك غير جائز، ويكونان جميعًا "آخرة" ولا دنيا، وقد بينها الله فى كتابه فقال فى الآخرة: "تلك الدار الآخرة"، وقال فى الدنيا: "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور". فدار الآخرة عند الله ممدوحة غير غرور، وهذه غرور. فهذا من الله تبارك وتعالى البيان.

ومن حجتهم أن قالوا: إن الجنة دار الخلد لا يخرج منها من قد دخلها، وهذه قد خرج منها آدم وحواء وإبليس والجانّ. فهذا دليل على أنها ليست جنة الخلد.

ومن حجتهم أن قالوا: إن جنة الخلد ليست دار تكليف، وإنما هى دار جزاء لعمل الدنيا، وليس يكلَّف فيها أحد، وقد كُلِّف فيها آدم وحواء ألا يأكلا من الشجرة، وكُلِّف إبليس والملائكة السجود لآدم. فهذه عبادة تعبّدهم الله بها.

ومما احتجوا به أن قالوا إن الجنة التى وُعِد المتقون فيها فاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وقد مُنِع آدمُ وحواءُ فى هذه الأكلَ من الشجرة. وقالوا إنِ احتج من ناظَرَنا أن الله قال: "اسكن أنت وزوجك الجنة" إنما هى جنة الخلد، سماها: "الجنة"، فقال الله: "ودخل جنته وهو ظالم لنفسه"، فهذا يلزم أن تكون جنة الخلد لأنه سماها: "جنة".

وقد احتج أيضًا من زعم أن الجنة مخلوقة، والنار مخلوقة فقالوا: قال الله: "جنة عرضها السموات والأرض أُعِدّتْ للمتقين"، وأخبر أنها "أُعِدّت" ولم يقل: "تُعَدّ" لأن قوله: "أُعِدّت" فعل ماض، و"تُعَدّ" فعلٌ مستقبلٌ، وقال: "اتقوا النار التى أُعِدّتْ للكافرين". وقد أبان الله الماضى من المستقبل. قال: "فأتى الله بنيانهم من القواعد" ماض، وقال: "يوم يأتيهم الله فى ظلل من الغمام" مستقبل. والماضى كثير شاهده فى القرآن.

ومما احتجوا أن قالوا: قال الله: "أَدْخِلوا آلَ فرعون أشدّ العذاب * النار يُعْرَضُون عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا".

ومما احتجوا أن قالوا: قال الله تعالى فى حبيب النجار الشهيد: "قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المُكْرَمين". فأراد قومه الذين خلف فى دار الدنيا يعلمون كرامة الله له.

ومما احتجوا به أن قالوا: قال الله: "ولا تحسبنّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا

بهم من خلفهم ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون". لا خوف ولا حزن على الذين لم يلحقوا بهم من إخوانهم المؤمنين الذين فى دار الدنيا. قالوا: والآثار عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كثيرة غير أنا اكتفينا بالقرآن وجعلنا القرآن الناطق المحكم".

المراجع

"التيجان" لوهب بن منبه

أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها "السيرة النبوية" لابن إسحاق

"المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام" للدكتور جواد على

"الرواية العربية– عصر التجميع" لفاروق خورشيد

"فى الرواية العربية" لفاروق خورشيد

"اليمن فى حاضرها وماضيها" لأحمد فخرى

"العرب قبل الإسلام" لخليل يحيى نامى

"تاريخ اليمن السياسى – اليمن قبل الإسلام" لمحمد يحيى الحداد

"نشأة التدوين التاريخى عند العرب" لحسين نصار

"نشأة علم التاريخ عند العرب" لعبد العزيز الدورى

الموسوعة العربية العالمية

الموسوعة العربية

Encyclopaedia Britannica